نحو "سلطنة" القلوب...

منذ الزمان الغابر وإلى يومنا الحاضر، قادت أمم كثيرة شعوبا متنوعة في بلاد عديدة من هذه الأرض الواسعة، وصارت أحياناً من عناصر التوازن. ومَن يدري، لعلنا نشهد أُمما أخرى أمثالها ولكنها جديدة في رؤيتها للعالم وفي حلتها الحضارية ونسيجها الثقافي. لقد طَبعت روما ومصر واليونان والصين والهند -وكذلك تركستان باعتبارها مهداً لحضاراتٍ مختلفة- نقوشَها على زخارف هذا النسيج العام، أما ما تركه الإسلام من طابع على هذا النسيج قروناً طويلة في قارات عديدة كعنصر للتوازن الدولي، فهو عمق فريد له مزاياه الذاتية...

وما عرفه التاريخ من السموق إلى القمم والذرى لم يحصل كله مرة واحدة وفي عصر واحد، بل -كما هو الحال في فيزياء الأرض- ما فتئت القمم والذرى تتبادل مواقعها مع السهول والسهوب أو شواطئ البحار، والأعماقُ السحيقةُ مع الجبال والتلال؛ فالذين ظهروا على مسرح التاريخ، قد اندثروا واحداً تلو الآخر، ثم تبعهم الذين جاؤوا من بعدهم في مداوَلة تاريخية لا تتوقف... والزمان في خضم سيلانه بينما كان يقدم باقاتِ زهورِ الإقبال لطائفة، كان يطبع بأختام الإدبار على طائفة غيرها. فربما قفزت أمم من ذروة إلى ذروة أعلى، في حين أن أمما أخرى عجزت عن دس رؤوسها في حفرة تحميها، مع أنها كلها كانت تعيش في حقبة زمنية واحدة. ولذلك

لا تُعَدّ القرون الوسطى قرونا مظلمة للأمم جمعاء، كما لا يُعَدّ عصرُ التكنولوجيا والعلوم الذي نعيش فيه نوراً وضياء للمجتمعات كلها.

نعم، إن التداول التاريخي مافتئ يعيد نفسه في تشابه يقترب من التماثل.. فظهر التصاعد إلى الذرى هنا أو هناك، وفي هذا العصر وذاك، لكن لم ينحصر السموق ولا الهبوط أبداً في قارة بذاتها وفي عصر بعينه. وكذلك هو الحال الذي نحن فيه اليوم؛ ففي العقود الأولى من القرن الحادي والعشرين، ترى شعوبا في بلاد من الأرض يسابقون العصر ويسبقون غيرهم بأشواط تذهل العقول؛ فيطأون بقدمٍ القَمَرَ، وبأخرى كوكبا غيره... في حين أن آلافا من الذين خاب حظهم في بلاد مظلمة من الأرض، يئنون وجعاً في براثنِ بداوةٍ وبؤس موروثٍ من ألف عام.

وينبغي أن لا نرتاب في أن إنساننا وبخاصة الأجيال الفتية منه، سيكونون في القابل القريب أصحاب القول الفصل في سنوات الألفية الثالثة، ما لم تعصف رياح معاكسة فلم تتبدد المكاسب المتراكمة حتى الآن بطريقة أو بأخرى. فإن أجيال اليوم المؤمنةَ السائرةَ في الطريق، المشدودةَ بالتحفز الروحي الكامل استعداداً لمنازلة الغبن والقهر والظلم الذي أصابها منذ قرون، يزفون بتحفزهم هذا من الآن ببشائر مهمة عما سيتحقق من تجديدات أساسية في جميع طبقات المجتمع في مطالع الألفية الثالثة. وحينما يحل الموسم سيؤتي الإيمانُ والعزم والثبات وعشقُ الحقيقة والفكرُ المنهجي بثماره -علما بأن كلا منها طاقة كامنة للقوة في حد ذاته- وسنعيش "انبعاثات عديدةً" تحتضن وحدات الحياة كلها.

إن الذي سيحدد ملامح هذا "الانبعاث" القديم قِدَمَ التاريخ البشري والذي يُعَدُّ قَدَرَه الأبيض السعيد... هو المستوى الفكري والثقافي للإنسان

المعاصر وأعماقُه الإنسانية وسعتُه الميتافيزيقية ورحابته الروحية...

لقد وَجَد عصرُنا نَفْسَه وهو على أعتاب القرن الواحد والعشرين في جو من الرَهَق والاضطراب والقلق والانهيار. ولئن ساقت هذه الحال بعضَهم إلى اليأس والانكسار، فقد أيقظ في الذين لم يستسلموا تماماً للظلمات الغيرةَ "الوطنية" ومشاعرَ الإخلاص، بقدر حريةِ وجدانهم وصفاء أفكارهم... وإذ أيقظها فيهم، صار وسيلة لنضوج استعدادات كثيرة تضاهي العبقرية. وكان له وقْعٌ وأثر -كنفخ الصور- في العالم الثالث خاصة، أدى إلى ظهور حركاتٍ إحيائية متتابعةٍ. فهذا العصر العفريت الذي كان مَحضنا لمَفاسد لم يُرَ مثلُها حتى الآن، كان في الوقت نفسه منطلَقا لأمتنا وأمثالها من الأمم للارتقاء المباشر، وميناءً للإبحار نحو آفاق البعث والنهوض.

والأمر الوحيد الذي ينبغي أن نعمله اليوم هو أن نهرع إلى أخذ موقعنا في التوازن الدولي بالشعور الجاد بالمسؤولية وبهويتنا الذاتية ومن غير هدر للزمن. فإن تَلَكَّأنا في تعيين هذا الهدف، فقد نعجز عن إدراك الغد، بَلْهَ التقدمَ والتطور. فنحن اليوم أمام أحد خيارين: إما الكفاح المصيري في الهمة والذي يؤدي بنا إلى "الانبعاث"... وإما الخلود إلى الراحة والاسترخاء الذي يعني "الاستسلام للموت الأبدي".

إن القرآن الكريم يحثنا على تجديد الذات والحفاظِ على جدتنا بالعرض المتكرر لقضيةِ أن "نكون" أو "لا نكون"، بقوله تعالى: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾(إبراهيم:١٩) ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ۞ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللهِ بِعَزِيزٍ﴾(فاطر:١٦-١٧) ﴿وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾(محمد:٣٨) وآيات كثيرة أخرى شَرَّفَتْنا بالنزول، نكتفي بإيراد هذه النماذج منها لأنها -على ما أعتقد- تفي بالمقصود.

ومن المحتمل بقوة أن الْمَعْنِيِّينَ اليوم في الآيات الكريمة بالإذهاب والاستبدال هم النفوس الميتة وسكانُ العالم الثالث الذين لم يجددوا أنفسهم وفشلوا في الحفاظ على حيويتهم وفرَّطوا في حق إيمانهم وتفحمت عوالمهم الداخلية -مع تقديرنا مبدئيا لجوهر الإيمان الذي يحملونه-. أما الآتون بدلا عنهم، فإنهم "الجيل الجديد" وكادر القدسيين، الذين أتموا التحفز المعنوي بطول الشحذ والتعبئة منذ قرون في دنيا المحزونين والمغمومين هذه، والمرشحون للارتقاء بإنساننا المستصغر والمستهان به إلى ذرى قيمٍ فوق القيم.

وما فعله الغرب حتى اليوم هو إهمال قيمه الدينية ووصايا السيد المسيح عليه السلام؛ إذ شنوا الحروب في القارات وأشاعوا الرق والاستغلال أينما حلوا؛ فلطخوا وجه العالم بالسواد. فعالم الغرب الآن يحلم بالكوابيس تحت أنقاض الدنيا المعنوية التي هدمها بنفسه وجعلها خرائب في قلوب البشر، ويسقط في الحيرة والقلق إزاء العقل السليم والفكر الحر الذي بدأ يصحو في كل مكان... والأنكى للجرح أن هذا العالم -لأنه لا يدري عن جزمٍ أين أخطأ- بائسٌ مهزوز لا حيلة له، ومرتعش هلعاً خشية صفعات الرأي العام الداخلي المتوقعة؟! لكنه -إذ يئن في شدة البؤس- بدلا من أن يعيد النظر في نفسه، يبذل قصارى جهده ليصرف الناس عن التفكير في الفوضى الحالية ويتملص عن مسؤوليتها بِدَفعها للبشرية إلى عالم الترف والسفه واللذائذ الجسمية.

إن هذا العالم يحاول أن يسلِّي نفسه بالمنجَزات العلمية والتكنولوجية هنا وهناك، وأن يُسرّي عن غمه بالثروة والراحة أحيانا. لكن من البدهي أنها لن تَمنح الإنسان سعادة مستمرة أبدا ولن تلبي رغبة البقاء والخلود

المكنونةَ في أعماقه. ولذلك، ما من شيء يتخذه دواء وعلاجاً إلا ويزيد في قتام أفق الأمل الإنساني ويضيف بؤساً إلى بؤسه الروحي.

إذن لندَعْ هذا العالم يتباهى بالعلم والتكنولوجيا إزاء الفراغ والاكتئاب الذي أوجده في الحياة الاجتماعية نتيجة لخطئه العظيم في تحديد نقطة الانطلاق.. ولْنتركْه يسلي نفسه ويلهو باللذائذ والأذواق، أو يتطلع ببصره إلى أعماق الفضاء في حين أنه يعاني من افتقاد الروح والمعنى الذي ضيعه في قلبه، مُهدِرا العمرَ خلف ضالته في وديان أخرى.

فنحن نعيش منذ جيلين ابتهاج العودة إلى روحنا بوتيرةٍ أسرعَ سيراً وأدق منهجاً مما شهدناه في الماضي. فإن إنساننا الذي اعتاد حتى الآن أن يلجأ إلى المادة والآلة ويقيسَ كل شيء بالمعايير المادية، بدأ يستيقظ -ولو من غير وعي تام- بالصفعات المتوالية للطواطم التي عبدها منذ قرنين عبوديةً لا تريد له عتقا، فبدأ يشعر بأنه ضحية في معبرِ تحولٍ تاريخي، وعلم أن عليه أن يسد الهوة السحيقة بين واقعه وذاته، بالهمة والإخلاص والدموع والشعور بالمحاسبة، وحمل عصا الترحال بخزين من العزم والتوكل والثبات. وسيسير إلى الآباد في هذا المسير الذي لن ينتهي وإن انتهت السبل وانقطعت، بعدما قال: "السياحة يارسول الله!".[1] وإن مصدر قوة روحه اللازمَ الذي لا فكاك منه في هذه السبيل؛ هو اكتشاف حقيقة الإيمان من جديد، واستشعاره في وجدانه، وتغذيةُ إرادته بالعبودية لله، حتى تبقى منفتحة ومستعدة للإقبال على الخير والصلاح، وتعميقُ روح "الإحسان"

---

[1] إشارة إلى رحلات الرحالة المؤرخ الشهير "أَوْلِياء چَلَبي" (ولادته سنة ١٦١١م ووفاته ما بعد سنة ١٦٨٢م) الذي ذكر أن ما بعثه إلى رحلة بعد رحلة هي رؤيا رأى فيها النبي ﷺ فأراد أن ينادي: "شفاعت يا رسول الله" طلبا للشفاعة، لكنه قال: "سياحت يا رسول الله"! فدعا له ﷺ في الرؤيا بالسياحة، فحبب إليه التنقل والسياحة في البلاد بعدها. (المترجم).

يوماً بعد يوم بالإحساس بحقيقةِ: "لي مع الله وقت"،[1] ثم الارتباط الدائم "بالعالم الآخر" وامتلاك آفاقٍ روحية رحيبة. فإن أفلحنا في التزود بمثل هذه الذخائر المعنوية، فعندما يهتف الربيع ويحل الموسم ستُهرع إلى الحياة تلك البذورُ المنثورة بنشوة العبادة في أرجاء الأرض كلها، وستحيي عهودا وردية عديدة دفعة واحدة في مجتمع المغمومين.

إن من أجدى الأمور في بناء الجيل الحاضر هو تيسير تنقلهم بين عوالمهم الداخلية وبين حقائق الوجود بتحفيز عزم التفكر المنظم لديهم، وتحبيبُ الإيمان والتعلم والتمحيص والتفكير إليهم بتدريبهم على مطالعة الآفاق والأنفس ككتاب مفتوح. فعلينا أن نقدم إلى آفاق مداركهم وعقولهم تلك التصوراتِ المذكورةَ بالوسائل المرئية والمسموعة، وأن ننقلهم إلى عوالم أرحب عن طريق إنقاذ أرواحهم من السجن البدني الضيق. ثم إزالة الكدر والقسوة من أرواحهم، وإيقاظ قلوبهم المتأججة شوقا إلى الآفاق الماورائية على أجمل التطلعات الإنسانية وأرقها وأخفاها وأكثرها سحرا ودلالا. وإذا نجحنا في ذلك فسنكون قد بشرناهم بالانبعاث من جديد.

وبدهي أن الأرواح التي لم تكتسب خفة بالتصفية بالايمان والمعرفة والمحبة لن تَقْدر أبدا على التحليق في سماواتِ ما بعد الأفق. بل دع التحليق في سماوات ما بعد الأفق، فتلك الأرواح الجائعة لا تنفك عن التلوث بالرغبات الدنيوية، فتمتلئ قلوبهم بالأحقاد وتطفح بالكراهية، ويقع نظامُ الروح أسيرا في قبضة جهاز النفس، ولا يزيدون على الأكل والشرب والنوم والجلوس والقيام، فيغدون عبيداً للبدن يأبون الانعتاق!

إن الحقيقة الفريدة التي يتلقاها روح الإنسان من كل من الإيمان

[1] الأسرار المرفوعة لعلي القاري ص ٢٩٩؛ كشف الخفا للعجلوني ٢/٢٢٩.

والمعرفة وتعلقِ القلب بالله هي المحبة، أما الحقد والكراهية وجوانب الضعف البشري فتزول -حتما- بحلول هذه القيم السامية... أجل، إن معاني الإيمان والمعرفة والمحبة توحد بين الإنسان والكون، وفي الوقت عينه تنجيه من عذاب الكثرة وآلامها، فتذيب وحدته ووحشته الجوانية في إكسيرِ "معية" الحق تعالى، فتحوّل حياتَه إلى لذة أبدية ونشوة خالدة تجعله يرتشفها كأساً بعد كأس!

فالأجيال المنطلقة إلى الغد المجهَّزةُ بهذا الجهاز والمزودةُ بهذا الزاد، تنتشر وتهاجر إلى جهات الأرض الأربع بعشق عميق وشوق عظيم ومن غير الانسياق لمكسب أو مربح، بل من أجل الارتقاء بالنوع البشري كله إلى الكمالات الإنسانية... ومع الابتعاد عن تطلعات الشهرة والمجد ابتعادا كاملا، ستتحمل أقسى الظروف وتنهض بأثقل الأعمال ثم تغادر ولا تلتفت إلى الوراء ولا تعبأ بحمد أو إطراء. هؤلاء، أينما حلوا، سيَصبغون كل عين وكل قلب بألوان الاحترام والخشية البادية والفائضة على تصرفاتهم، حتى إن لم يتحدثوا عن الدين، أولم يلفظوا بقول عن التدين... وسينفتح كل من يتصل بهم على آفاق "الروح" الرحبة والغنية، بدلاً عن الحقائق النسبية والقصيرةِ الأبعادِ للمادة، فيبلغ سعةً تتعدى الخيال في الدنيا نفسها، وينال "عرش مملكة" يعجز الكلام عن وصفها.

ونحن نبني حضارتنا

إننا كأمة لا بد لنا اليوم أن نعرف البرامج والخطط التي نسير بها إلى المستقبل، والمراحل التي نريد التنقل عَبرها في مسيرنا. لقد أحاط بمجتمعنا في ماضينا القريب أحداث مأساوية زعزعَتْنَا، وفَتحت عيوننا على العصر في ضبابٍ ودويّ صواعقَ كأنها قيامة حمراء! فكان عسيراً جدا -بطبيعة الحال- أن نبصر بوضوحٍ ونقاءٍ الغايةَ والهدف الذي هو "إحياء أمتنا"، وأن نستدل على الاتجاه القصير الصائب للوصول إلى ذلك الهدف وقد وجدنا أنفسنا في غبش ذاك الضباب والدخان ومركزِ رجة الكثير من الزلازل. بل لعل ذلك كان محالاً بواقع الأحوال الداخلية والخارجية.

نعم، كان عسيراً أو محالا، لكن العجيب أن تتشكل رؤى هذا المجتمع في "الانبعاث من جديد" وأن يتوجه إلى قيمه الذاتية، متزامنا مع هذا الوقت العصيب بعينه، بعدما سيق إلى التضعضع في كل ما هو ذاتي فيه وهُيء ليُستَلبَ وجُعل "قابلا للاستعمار". وكان هذا حالاً خارقاً للعادة؛ لأن الشعور الفردي كان مهزوزا من الأساس، والشعب كان حائراً ومضطربا في قلب أشد الزلازل وأرهبها، وجموع البشر كانت مقصومة الظهر في مآس مفزعة من أندر ما في التاريخ.

وفي وسط ذلك الضباب والدخان الكثيف الذي لم يكتمل تشكُّل الوجدان والرأي العام الاجتماعي بعدُ، لم يكن هناك غيرُ أفراد منقطعين

عن بعضهم البعض، يكدُّون من أجل الوصول إلى المستقبل بدافعِ: أنْ يجدوا لقمتين ومأوى؛ ويعني ذلك أنهم يحسبون المراوحة في مكانهم سيراً وتقدما، غافلين عن غاية حياتهم وعن وجود قيم سامية تستحق كل شيء حتى الموتَ في سبيلها. نعم، كانت الأفكار مشتتة والإراداتُ مهزوزة والهممُ مشلولةً والآفاق مظلمة والقلوبُ خاوية. ولكن مع هذه المثبطات كلها كان المجتمع يصنع كل يوم أحلاماً جديدة ويُسَرّي عن نفسه بالأماني ثم يرجع خاوي الوفاض مما أمل في كل يوم جديد ببرنامج جديد!

فحديثه عن تصاميمَ تشبه أحاديث النيام، وحديثُه عن مشاريع، ولو ذات نطاق ضيق، كانت تتزامن مع هذه المرحلة المشؤومة التي تَضاعَف فيها وقْعُ النكبات عليه وتوالت عوامل التعرية الروحية. ولقد بدا كل شيء في البداية كردِّ فعلٍ للأفكار المستهان بها والمعتقداتِ المتعرضة للتزييف والضمائرِ المقموعة. ثم أعقب ذلك حركات مستشعرة واعية وأنشطة مستديمة. فمن اللائق أن نعتبر تلك البداية بداية حقيقية للانبعاث بعد الموت لأمتنا. وكان طبيعيا أن يَظهر بعد هذه المرحلة -كما ظهر قبلها- مَن يريد أن يتحكم في هذه الحركة الواعية المستشعرة والطاقةِ الحاصلة من إحياء النفوس والأرواح، ويوظّفَها كما يهوى ويشتهي... وقد ظهر فعلا. ولكن جموع البشر لم تَعُد تَقبل أن تقع -كرة أخرى- في موقع "القابلية للاستعمار"، بعدما بدأت تُدرِك ذاتَها بذاتها وبمقوماتها الداخلية الذاتية.

ومع الزلات والكبوات، كان الانخراط يمضي ويدوم في هذا الإحياء الذي صارت الجموع تستشعره في عوالمها الداخلية وفي أرواحها وقلوبها. وسيحظى الجميع -الجميع من غير استثناء- بوجودٍ ذاتي جديد، عاجلا أو آجلا. صحيح أن موانعَ كأمثال ذلك الضباب والدخان القديم

لا زالت تُعيق الرؤية السليمة والإحساس السليم للمجتمع، لكن كثافة الضباب والدخان اليوم ليست كالقتام الذي عرفناه؛ فبشيء من الهمة والجهد صارت القلوب قادرة على أن تنهَلَ من منابعها الذاتية وأن تحلم بتحقيق رؤاها الحضارية.

غير أنه ينبغي اليوم أن نحدد إطار الفهم لتلك الحضارة، ونعيد النظر في كنهها (بتعريف جامع ومانع)، ونقف على المعنى والمحتوى لأمسنا، وفوضويةِ يومنا وغموضه، والمعالجات المتصوَّرة لغدنا... ثم نتعرفَ على صوت هذا العصر مع الحفاظ على الأصل والذات من جهةٍ، وأَخْذِ معالجات الزمان الحاضر وتفسيراته بنظر الاعتبار من جهة أخرى. وبدهي أن هذا عمل شاق، لكننا قادرون على القيام بأعبائه بعناية الله ﷻ، ما دمنا قد ألقينا بأنفسنا في هذه الطريق.

ومن مقاربة أنتروبولوجية (Anthropology)،[1] نجد أن الحضارة -والتي يمكن أن نفسرها بأنها مجموع النشاطات المتعلقة بتنظيم الحياة الإنسانية، أو التصورات الفكرية والاعتقادية والفنية لأي أمة، أو كل الأوصاف الخاصة بوجودها المادي والمعنوي- مفهومٌ له أشكال مختلفة وعديدة، وذلك حسب الرؤى والفهوم والفلسفات والقدرة على التلقي. ومهما كثر التنوع في التفسير، فلا شك أن الرؤية السليمة ليست تلك النوعية والأساليب من الحياة التي انتقلت إلينا من رجال فترة الاستعمار فتقطعت أنفاسنا لهثاً وراءها منذ سنين طويلة، ونزعنا من أجلها عن أنفسنا كثيراً من قيمنا. ولو كانت كذلك، لفَقَد الكفاحُ العظيم ضد الاستغلال والاحتلال كلَّ معانيه وجدواه.. والواقع أن هدف الكفاح كان واضحاً، وهو الاستقلال التام في كل النواحي.

[1] أنثروبولوجي: علم أحوال الإنسان والبشرية (المترجم).

فإن كنا الآن نفكر في إعادة بناء الذات من جديد، ونبحثُ عن أسلوبنا الذاتي الحضاري، فينبغي أن نتخلص من احتلال المفاهيم والأفكار الغريبة في داخلنا، والمبرمجةِ على تخريب جذور الروح والمعنى فينا، وأن نتَّبع -بالضرورة- سبيلا يُمكّننا من العمل على طبع فكرنا الذاتي ونظامنا الاعتقادي الذاتي وفلسفتِنا الذاتية في الحياة، على نسيجنا الحضاري الخاص.

وبغضّ النظر عن التحليلات الأنثروبولوجية الحديثة لابد لنا -وبقدر المستطاع- أن نستخدم جميع الوسائل المشروعة للوصول إلى الهدف الجليل الذي يُمليه علينا فكرنا الذاتي، ونجدَ حلولاً بديلة للتخلص من الفوضى التي نعيشها. وعلينا -إذ نبحث عن الحلول البديلة- أن نأخذ بنظر الاعتبار كلَّ الحيثيات التي تتعلق بموقعنا الجغرافي والاجتماعي.

ولئن كانت الحضارة عنواناً أو مصدراً لمجموع الأحوال والأشراط المادية والمعنوية وكانت هذه الأحوال والأشراط واعدةً بتلبية حاجة أفراد ذاك المجتمع من أطفال وشباب وشيوخ ومسنين بل ملبيةً لها بالفعل في كل مرتبة من مراتب الحياة وفي كل مرحلة من مراحل التطور... فإني أحسبُ أن الأصوب هو أن ننظر إلى القضية بعينٍ عملية إلى جانب المنظور الأنثروبولوجي، بصورة قد تتعدى علم الأنثروبولوجيا البحت. وإذ نفكر في هذا، يَلزمنا ألا نُهمل المرحلة الراهنة لتطور المجتمع. فإننا إذا اقتدينا -بوضعنا الحالي- بدول سبقتنا في وتيرة الإمكانات الحضارية بأشواط بعيدة، أو بأخرى تقطع المسافات بسرعة البرق في الطريق الذي نمشي فيه مرة ونكبو أخرى، ومعنا آخرون ممن يقاسموننا الخطوط والتوجهات نفسها، وذلك للوصول إلى الغاية... فأحسب أننا سنقع تحت

صفعات الخيبة عند الفشل في نوال المقصود ونعجزُ عن الوقوف على أقدامنا تحت وطأة الخذلان والفشل.

إن المجتمعات المتطورة والمتقدمة اليوم كانت من قبلُ تعاني من مثل ما نعانيه، وكانت تقوم وتقعد في تخبط كتخبطنا وتكتوي بنارِ عذابٍ كعذابنا. ثم جاءتها أيامٌ فُتحت فيها أبواب التجديد على مصاريعها بفضلِ ما كانوا يتمتعون به من شوق البحث وعشق العلم وحثيث العمل ومكافأةٍ من وُفقوا، بأجزل المكافآت. فتَحققَ النجاح إثر النجاح مما أدى إلى فوران العزم وشحذِ التوق. وصارت البيئة عندهم مشاتلَ تحتضن فسائل العبقرية... فتَتَابَعَ الاختراع؛ من مكائن البخار إلى مصانع النسيج، ومن مختبرات الأبحاث إلى المطابع... وبلغوا بعد مدةٍ عصرَ العلم والعقولِ الألكترونية.

ولما بادر الذين يقدّرون العلم في تلك الأيام بمكافأة الكشوفاتِ والاختراعات والأبحاثَ العلمية، صاروا وسيلة لانكشاف القابليات العظيمة في كل مكان لِتجدَ فرصتها في النماء والتطور، فكأنَّ أطراف أرضهم معرض العجائب لأعمال النوابغ الذين لا يَعرفون الفتور.

وكما تعاقب ظهور العلماء في عالمنا الإسلامي من أمثال ابن سينا والفارابي والخوارزمي والرازي والزهراوي إبان تحقُّق الوسط والبيئة الشبيهة، كذلك استَخدم الغربُ ما تَوارَثَه من المكتسباتِ خير استخدام وبأوسع وجه ممكن في ذلك الوسط، واستطاع أن يسِمَ القرون الأخيرة بسِمَتِه.

لذلك، من الغلط أن نحصر حاضر "الغرب" في آثار جهود علماء ذوي قابليات راقية، مثل كوبرنيك وغاليلو وليونارد دافينشي ومايكل أنجيلو ودانتي أو أديسون وماكس بلانك وآينشتين؛ فلا يمكن أن نُرجع "النهضة العلمية" أمس ولا الفوران العلمي والتكنولوجي اليوم، إلى مساعي عدد

قليل من أمثالهم فحسب. وإلا، فإننا سنواجه مشاكل نعجز عن إيضاح أسبابها بالقاعدة المعروفة بـ"تناسب العلية". فإن النجاحات الخارقة للعادة، المتحققة أمس واليوم، والتكوينات العالمية الكبرى، مرتبطةٌ -إضافةً إلى عبقرية الأفراد ونبوغهم- بالبناء الاجتماعي المولدِ للعبقرية، والوسطِ المناسب لتنشئة المكتشِفين، والبيئةِ العامة الحاضنة للقابليات. فنقول بهذا الصدد: إن الحديث عن الوسط والبيئة العامة مازال يرِد حيثما كان يرِد ذكر همة أصحاب الاستعدادات السامقة وجدِّهم وجهدهم، بل كثيراً ما يَظهر الدهاء والقابليات لأصحاب المواهب العظيمة والعباقرة السامقين بقدر ما تسمح به البيئة العامة. وتَوَقُّعُ ما يخالف ذلك غير مُجْدٍ اليوم أيضاً.. فبدهي أنه ما من أحد يَقوى على تغيير قواعد "الشريعة الفطرية". فالذي يناطح السنن الكونية كلَّها فسيخرُّ منهزماً، عاجلا أو آجلا. إن العبقرية في أرضٍ غير أرضها محكومٌ عليها أن تكون كعصفٍ مأكول، كما يُحْكَمُ على البذرة بالفناء في أرض لا تُرعى فيها بالهواء والماء والقوة الإنباتية.

إذن علينا أن نبحث عما نأمله لغدنا، في نقطةٍ تتلاقى فيها البيئة الصالحة وعشقُ العلم وعزمُ العمل والبحث المنهجي. فإذاما أثارت البيئةُ الصالحة العشقَ العلميّ وألهبت العزائمَ على السعي والإنجاز، فستشعر القلوب الحساسة بذلك في أعماق كيانها بعملية امتصاص خارقة، ثم تقوّمه، ثم تضعه موضع التنفيذ في إطار منهجية معينة. وبعد ذلك، تعمل "الدائرة الصالحة"[1] للارتقاء بإلهاماتٍ وتداعيات وتركيبات وتحليلات جديدة.. تعقبها –باستمرار واطرادٍ- الجهودُ الفكرية والنُّظُم المنسجمة مع مقوماتنا الذاتية والمتوافقةُ مع رؤيتنا ومبادئنا الحضارية.

---

[1] أراد المؤلف بالدائرة الصالحة الدائرة الوَلود التي يثمر فيها الخير خيراً على الدوام، وهي ضد الدائرة الفاسدة التي يفرز فيها الشرُّ شرا على الدوام في حلقة مفرغة عقيمة. (المترجم).

لكن الحاصل عندنا كان دائماً عَرْضاً خَلَّاباً لما أنتجه غيرنا تحت اسم الحداثة أو النهضة الإسلامية، وإن كان أكثر هذه المنتجات يناقض مرتكزاتنا الأساسية. فلم نفلح في تفهم "الحداثة" أو "النهضة" بمقوماتها الذاتية، أو -قل إن شئت- ذهلنا عن ذلك. ومن هذا الوجه، نستطيع القول بأنَّ تخلف عالمنا عن اللحاق بما بلغته الدول المعاصرة، وعجزَه -مع كده وجهده- عن تحقيق النهضة المأمولة، ليس بسبب الوضع الجغرافي لبلادنا أو نقص الإمكانات أو ضعف القدرات والقابليات لإنساننا، بل لقصورٍ عن فهم كنه التحديث ونقصٍ في الفكر، والاكتفاءِ بالقوالب الفكرية النمطية كبديل عن حب العلم وعشق الحقيقة.

وأظن أن التعرف على أنموذج جارتنا القريبة منا: ألمانيا، وعملاقِ الشرق الأقصى: اليابان، يزيح عن أنظارنا ستائر كثيرة لنطلع على نواقصنا. فألمانيا خرجت من حربين عالميتين مثخنة الجراح؛ فكان حالها في النصف الأول من القرن العشرين خراباً وركاماً ومأوى للبوم الناعب في كل طرف، وكأنها هي التي وصفها محمد عاكف في بيت شعر (ترجمته):

الديار خرائب،
والصحارى خالية موحشة،
والأيام محرومة من العمل والكد،
والليالي جاهلة بمعنى الغد.

لكنها تغلَّبت على المثبطات، ولمت شعثها وجمعت أشتاتها في زمن قصير، وانتصبت بلداً عملاقا أمام العالم. ولم يكن أحد يتفوه بكلمة عن الوحدة الألمانية، حينما كنا نحلم نحن بأحلام التحديث في أوائل القرن التاسع عشر. وإذ صارت ألمانيا بلاد الأحلام متحدية كل

هذا الخراب، لا زلنا نثرثر عن أحلام التحديث. وقد يقال: "إن ألمانيا غيرت كفنها إلى قميص مرتين لكونها بلدا غربيا محظوظا، فحققت انبعاثات بعد موتها مرات حسب فلسفة حياتها... إذ ما كانت ألمانيا قادرة على القيام من كبوتها لولا حظها من القرابة الدينية والثقافية من دول أوروبا". ولئن قَبِلْنا بهذه الفرضيات والتقديرات في شأن ألمانيا، فثم "يابان" الشرق الأقصى التي تعرضت إلى الحصر والتحديد من العالم الغربي كله ردحاً من الزمن.

إن مشاريع التحديث عندنا تسبق اليابان بنصف قرن من الزمان. إنها بدأت بالسعي الحثيث في طريق التحديث بعدنا بخمسين أو ستين عاماً... فاجتازت كل العوائق وسبقتْنَا في طفرة واحدة مع أنها كانت قد أصيبت بنكبتين عظيمتين في تاريخها القريب، فأخذتْ موقعَها بين العوائل الكبيرة والقوية التي تتولى شؤون العالم. وإذ نسلي أنفسنا ونُسرّي عنها بأناشيد الولادة والانبعاث من جديد، بدأ اليابانيون بجني ثمار نهضتهم. وإذ ينهش بعضنا بعضاً بعد مائة وخمسين سنة من المسير بمناقشةِ صحةِ نقطة الانطلاق بدلا من النقاش حول الهدف المنشود، سد اليابانيون الفجوة بينهم وبين الغرب في زمن قصير لا يعدو الأربعين عاماً، واكتسبوا قد رةَ منافسةِ عصرهم ومنازلته. فاليابان اليوم قوة عملاقة؛ بقدرة اقتصادها ونشاط مبادراتها، وطاقتها الاستثمارية الفعالة، وسُمْعتها الجيدة على مستوى العالم... وقد ظلت اليابان حَذِرة وانتقائية ومُخْلصة لهويتها القومية إبان تحقيقها التحديثاتِ المتتالية وتبشيرِ شعبها بوعود المستقبل المرفَّه، وأثناء اقتباسها من العالم ما تقتبس، وأخذِها ما تأخذ أو تركِها ما تترك.. فلم تستخف بتاريخها، ولم تلعن ماضيها، ولم

تنكر جذورها المعنوية والروحية.. بل ما فتئت تفكر مليا في المهاوي السحيقة بين حالها المتخلف وبين الذرى التي تصبو إليها، وتُقَوّم الحال بعقلانية وواقعية، فخططت مشاريع قابلة للتطبيق، وآمنت بأنها ستحل معضلات التخلف كلَّها بمنظومة اجتماعية تقوم -إلى حد كبير- على الأسس الأخلاقية، ومَلأت الفجواتِ الناجمةَ من نقص القدرات وزيادةِ الحاجات، بالاعتزاز الوطني والانتساب القومي والعز، والحركةِ المنظمة الهادفة وتنظيمِ المساعي والجهود. فنجحت في الاحتفاظ بهويتها الذاتية، وصارت أنموذجاً يَذكُره التاريخ كشعب أنجز عجائب العصر.

إنَّ ما فعلناه في تاريخنا القريب هو الكدح في بناء الحضارة فوق إنجازاتها السابقة وأنعُمِها وثمراتها. أما اليابان وأمثالها من البلاد المتقدمة، فقد أقامت كل شيء على أسس الفكر الحضاري والمفاهيم والسلوكيات الحضارية. ومع تقديري وتوقيري لشيء من التطور الحاصل عندنا، فإني أظن أن هذه النظرة المنحرفة -في عالمنا الإسلامي- هي السبب الرئيس في مراوحتنا في مكاننا بينما يتسابق الآخرون من نجاح إلى نجاح؛ فبينما كنا نكافح نحن في استكشاف طرق سهلة ورخيصة للحصول على نعم الحضارة ووسائلِ تَقَاسُمها، أقامت الشعوب المتقدمة بناءَ كلِّ شيء على الإنسان والأخلاق والتعليم والثقافة.. واجتازت بسرعة الطير المهاويَ التي سقطنا فيها، فارتقت إلى القمم التي قصرنا عنها.

ولننظر إلى الموضوع من زاوية أخرى؛ إن مجموع النتائج والمعطيات لحضارة معينة هي تلك الحضارة عينها. وعلينا أن لا ننسى أن أهم أركان ظاهرة الحضارة هو الإنسان المؤهل، وأقوى أسسها الحيوية هو دولة حرة ومستقلة، وأثمن رؤوس أموالها هو الزمن. ولا نشك أن الدول

المتقدمة قد استغلت هذه المقومات بأحسن وجه. وعلاوة على استغلالها هذه المقومات استغلالاً حسنا، لم تهمِل أبداً تقسيمَ الوظائف، واحترامَ الاختصاصات والاهتمامَ بالإنسان ومكافأةَ النجاحات واستثمارَ الإمكانات الأولية التي وهبها الله تعالى لها استثمارا مُجْدِيًا؛ وفي المقابل إذا وقعت هذه المقومات التي تساوي قيما فوق القيم في أيدي المجتمعات التي لم تنظِّم مساعيها تنظيماً دقيقا، ولم توزّع الواجبات والأعمال توزيعاً جيدا، ولم تتعرف إلى أسرار ثرواتها المكنوزة والظاهرة، ولم تتفهم القيمة الحقيقية للإنسان، ولم تستثمر الزمن استثماراً مجزيا... ففي هذه الحالة ستكون هذه المقومات كالمتاع الذي يقع في يد بائع لا يقدِّر قيمته فيبيعُه بثمن بخس دراهم معدودة.

إن كل الأمم التي تركت حضاراتُها آثارا وبصمات في التاريخ والخرائط الجغرافية لم ينقش اسمها على صفحات التاريخ بأحرف بارزة إلا بمثل هذه المثابرة في التقويم والتنظيم، والقابليةِ في التركيب والتحليل، والتعبئة الروحية والفوران المعنوي؛ ففي الخط التاريخي الطويل، الممتد من البراهمانية إلى البوذية، ومن اليهودية إلى المسيحية ثم الإسلام، هناك أمم عديدة تربت في مهد الإيمان والعشق والتصورات الروحية والمعنوية فأكسبت الأرضَ والزمان والإنسان قيما لا تقدر بثمن.

لكن الواقع أن الإسلام يمتاز بأوجه كثيرة عن جميع الأفكار والنُّظم القديمة والحديثة، الدينية واللادينية. وابتداءً، فإنه من المسَلَّم به أن حركات التجديد والتحديث الواقعة في جميع النظم غير الإسلامية، أدت إلى إبعاد الدين عن مركز الحركة. أما في الإسلام، فعلى خلاف ذلك مطلقاً قد تولى الدينُ رسالةً مهمة في مركز الحركة التجديدية، وتحولت

كلُّ حملة إلى تماسك ونضوج واعدٍ بالمستقبل، بتغذيتها المستمرة من معانيه وروحه.

وما زال إنساننا منذ سنين ينتظر من روح الدين بارقة من هذا النوع كلما هم بالقيام بعمل. وبالفعل لاحظنا أن لمعان بارقة من هذا النوع ولو من بعيد، أو رؤى تحمل رموزا ودلالات حوله، قد كفت لانبعاثِ أرواح بالية منذ مئات السنين.

فما بالك إذا اطلعنا على نتائج الجهود التي تبدو الآن ضعيفة ولكنها في الحقيقة مهمة...؟! فإنني أظن أن الآمال حينذاك ستتحفز وتنشدُّ بجدةِ "انبعاث بعد الموت"، وتنهض الإرادات، وتجيش القلوب بالإيمان، فإذا بنا نُحَقّق المشاريعَ الحضارية المترقبة منذ مئات السنين واحدا تلو الآخر. هذا، ما لم نستسلم للعوائق المصطنعة والموقوتة التي تريد أن تقطع علينا السبيل، وما لم نتطلع إلى الأجور الدنيوية أو الأخروية لخدماتنا التي نحن ملزمون بأدائها والإيفاء بحقها، وحَصَرْنَا الغاية في طلب رضى الحق تعالى وحده.

إن التصور للديمقراطية والحرية، -ولو بوضعهما الحاضر- قد خلّصت شعباً عاش رهين الغفلة، وجهزته بأحاسيسَ وأفكارٍ وقدرات للعبور إلى الحضارة... فإذا لم ندمر التوازناتِ ضد مصالح أمتنا، في مواجهة الأحوال والمعادلات الداخلية والخارجية، فسنقتدر في العاجل القريب أن نقول: هاكم مشاعرنا الذاتية ومنظومتنا الفكرية وقراءتنا للحياة ورؤيتنا الحضارية وثقافتنا الأصيلة...

مشكلتنا الثقافية...
أو الكينونةُ الذاتية

لا شك أن المعنى الذي نقصده من "الكينونة الذاتية" هو إبراز هويتنا الداخلية المنسوجة من ميراث حضارتنا الذاتية وثقافتِنا الذاتية، وجعلُها "المحورَ" الذي ندور حوله. فلربما يَفهم بعضُ الأوساط في أيامنا هذه كلمةَ "الذاتية" على أنها العروض الفلكلورية التي لا علاقة لها بالجذور "المعنوية" لأمتنا، و"الغرائزُ" التي تطفح حينما تحس الكتل البشرية بالحاجة إلى إشباع نزواتها "الجسمانية"، والمراسيمُ التي تقام في مناسبات الأكل والشرب والأعياد والأعراس... لكننا نحن نفهم من تعبير "الذات" معنى أوسع وأشمل وأعمق؛ فهي ظاهرة أجرت فاعليتها في كل شرائح المجتمع، وتغذت من ذاكرة الأمة وشعورها ووجدانها على مر الزمان إلى أن وصلت إلى عصرنا هذا، وانعكست على مشاعر الأمة وأفكارها ولسانها وتصوراتها الفنية وتمثلت فيها، وعشناها في أعرافنا وعاداتنا وتقاليدنا باعتبارها أهم عمق من أعماق الحياة في كل أوان.. فنحن نحس ونشعر بها في كل وحدة من وحدات الحياة، وفي كل صفحة من صفحاتها وكل مرحلة من مراحلها، وفي كل محطة من محطاتها؛ من الرعاية التي نلقاها في أحضان أمهاتنا إلى سلوكيات أجدادنا المشبعة بروح الأبوة الحانية التي تعكس طبيعتنا الذاتية.. ومن طبع برامجنا التربوية

ومضامينها بروحنا الذاتية إلى نفخ المربي لهذه الروح بأكمل وجه.. ومن أشكال الطهي في مطابخنا إلى تصرفاتنا في حقولنا ومزارعنا.. ومن قيامنا وقعودنا في مكاتبنا إلى أخلاقياتنا المهنية.. ومن أساليب كلامنا وكتابتنا إلى علاقاتنا بالآخرين.

قد لا يُدرِك البعضُ على المدى القريب الفوائدَ العملية أو الاجتماعية للعيش في أجواء "محور الذات". لكن من الطبيعي والبدهي أنه على المدى البعيد وبالإصرار عليه سوف تبدو الأهمية الحيوية له في مراحل التقدم كلها. وعلينا في هذا السياق أن نواصل السير في إطار ديننا وتراثنا وأعرافنا وعاداتنا وتقاليدنا، مع أخذ ما يستجد من تفسيرات الزمان بعين الاعتبار. وبمرور الزمان ستكون قيمنا الذاتية جزءاً لا يتجزأ من طباعنا. وما نقتبسه من الخارج سيصطبغ بصبغتنا وسنتبناه فيكون لونا مهما من ألوان الخطوط في نسيج أطلسنا الذاتي؛ الفكري والثقافي.

إن تلك الحضارات التي كانت تُذهِل العقولَ وتَبهر العيونَ بغناها الثقافي لم تَظهر في روما وأثينا ومصر أو بابل فجاءةً من غير مقدمات؛ إن الثقافة في كل مكان إنما وُلِدت بعد حضانة طويلة في عالم المشاعر والأفكار للأفراد، وفي السفوح الخصبة للوجدان العام، واستقت من المناهل الداخلية بشكل مباشر، ومن الخارجية بعد الترشيح والتصفية، فترعرعت حتى صارت بعد زمان عمقا مهما لطبائع الشعوب ولوناً ظاهراً لحياتها، ثم أحاطت بأرجاء الحياة كلها وإن لم تَجْرِ الألسنُ بالكلام عنها دائماً، فهيمنت على حياتها في المعبد والمدرسة والشارع والبيت والمقاهي وغرف النوم... حتى إنَّ الناس لو لم ينصاعوا لها بإرادتهم ووعيهم، فقد كانت تطوِّعهم بقوة سرية عفوية تأسر إرادتهم.

فأية أمة أرسيت قواعدُها بهذه المثابة على أساس ثقافي بهذه الرصانة فإنها بمرور الوقت ستصل إلى مستوى من النضج بحيث يكون من الطبيعي لها أن تتخطى كل العقبات التي تعترض طريقها كالجهل والفقر والتشرزم والتسيب والضغوط الخارجية. فكل من حضارة روما وأثينا ومصر والعثمانيين تُعتبر -باعتبارها من حضارات العهد الوسيط- من الأمثلة الجيدة على هذا.. وبالنسبة للتاريخ القريب تُعتبر ألمانيا نموذجا لابأس به لولا أنها أنهكت نفسها بخوض مغامرات من نوع الحرب العالمية الثانية. فبعد الحرب العالمية الثانية، انقلبت ألمانيا عاليها سافلها، وصار اقتصادها ركاماً، وتسلط الأجانب على سيادتها الوطنية، وتفرَّق المجتمعُ إلى معسكرات متنازعةٍ في الجو النفسي الذي ولَّدته الهزيمة والبؤس، وصارت تلك البلاد من أدناها إلى أقصاها معسكراً للأسر... لكن قلوبهم كانت -في الوقت ذاته- تنبض بالهمة، ورؤاهم تفوح بحب ألمانيا الكبرى، وكانوا على ثقة تامة بأن قوتهم العضلية وفكرَهم كافيان لتحقيق ذلك. وكانوا على يقين بأن ألمانيا إذا كانت لا بد وأن تنجو من ميدان الموت هذا، فإنما تنجو بطاقتها الحيوية وثقافتها المستقرة الراسخة. وهذا ما حصل فعلا. نعم، إن الشعب الألماني ولَّى وجهه شطر جذوره المعنوية، واستفاد بعقلانية من الظروف الاجتماعية، والنفسية-الاجتماعية، والاجتماعية-الثقافية، وأصبح من الذين قرؤوا وفسروا أوضاع النصف الأخير من القرن الماضي في سبيل مصالحهم، بشكل لم يسبق له مثيل.

نستنبط من هذا الأنموذج: أن اختزال أسباب المعضلات السياسية والاقتصادية والإدارية لأي بلد وحصرَها في السياسة والاقتصاد والإدارة وإن صح من وجه معين، لكنه معلول بنواقصَ من أوجه كثيرة ؛ فما من

شك في فائدة الجهد والهمة والعلم وابتكار البرامج البديلة في كل ساحة وميدان، لكن هنا أمر آخر ينبغي صرف الهمة إليه بالضرورة، وهو -على ما أعتقد- ثقافةُ الأمة وجذورها المعنوية؛ إذ ينبغي على الأمة ألا تغض البصر عن جذورها المعنوية في جميع فعالياتها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، وألا تنسى البتة الرسالةَ الهادفة المميّزة لثقافتها الذاتية، ما دامت قد قررت أن تتقاضى وتتحاسب مع عصرها.

صحيح أنه كلما دار الحديث حول التغير والتطور في بلادنا حصل التركيز على ثقافتنا الذاتية، ولكننا لا يمكننا الحديث عن مبادرة تتصف بالديمومة والمنهجية في هذا المجال؛ فالمدارس (التقليدية) والزوايا والتكايا التي كانت تربي مهندسِي فكرِنا وعمالَ روحنا في الماضي، لم تنتج مشاريعَ تأخذ بأيدينا إلى المستقبل. وإذ لم تنجح في ذلك، انسحقت تحت ركام أنقاضها. وإذ نقول هذا القول، نواجه مبدأً يكاد يسكتنا ويضرب على أفواهنا، هو: "اذكروا محاسن موتاكم وكفوا عن مساوئهم"،[1] ويمنعُنا من أن نتفوه بشيء غيرِ هذا. ونحن بدورنا نقول: "إن حوادث التاريخ لا تعيد نفسها مهما تشابهت فيما بينها. فاللازم أن نعتبر بعبرها، لا أن نتلقى دروساً منها". ومن ثم نوجه الأسئلة عن الماضي إلى أنفسنا في الحاضر، فنقول: إن الذين سبقونا قد انقرضوا لما انحرفوا عن الغاية والهدف من وجودهم. ونحن اليوم في الموقف عينه. فالأصوب إذن أن نقاضي أخطاءنا بدلاً عن الانشغال بأخطائهم، وإن سلّمنا بوقوعها.

لنسلِّم بأنهم لم يأبهوا بالمنابع التي ينهلون منها، فصاروا وسيلة لجدب أمتنا. لكن قولوا لي -أرجوكم- ما الذي صنعناه نحن؟ هل نستطيع أن

[1] الترمذي، الجنائز ٣٤؛ أبو داود، الأدب ٥٠.

ندَّعي بأننا -كشعوب- وفَّيْنَا بمسؤولياتنا كلها؟ أو هل نزعم بأننا قمنا بإدارةِ مؤسسات الدولة كما يتطلبه العصر؟ رجاءً أفيدوني! من يستطيع أن يقول: إن المدارس في كل هذه المدة المديدة قد أثمرت المرتجى؟ صحيح أن كثيرا من الشباب حصّلوا تعليماً عاليا في باريس ولندن وميونيخ ونيويورك... لكن هل صاروا أعضاء نافعين لمجتمعهم؟ بل على العكس؛ فدع عنك كونهم أعضاء نافعين، رجع أكثرهم إلى بلادهم بأحلام (فانتازيات) مختلفة، وجلبوا للوطن معضلات عويصة بتأثيرِ تياراتٍ مثل الأنكلوسكسونية والنازية والسلافية، أو الرأسمالية والليبرالية والشيوعية؟ فزادوا الاضطراب اضطرابا، وزادوا القطيعة مع الذات شدة... ولا زلنا نرجو ونأمل ألا يدوم الحال على هذا المنوال.

والحقيقة أن ثمة أسبابا كثيرة تبعث على الرجاء والتفاؤل؛ فقبل كل شيء، قد أصبحنا نعي إبان هذه المدة ما أصابنا من الغدر والظلم. ويمكن لألبوم الصور المريرة هذه أن تلهمنا صورا مختلفة منذ الآن.. إنَّ تَعَلُّقَنا بمد جسور الصداقة مع فرنسا وألمانيا وإنكلترا وأمريكا، وخيبةَ آمالنا، وقلةَ حيلتنا، والتجاربَ التي اكتسبناها في خضم محاربة المئات من السلبيات، قد تحولت إلى توتر روحي جاد يمكن أن يولد انفتاحاً على غرار "قوة الطرد المركزي". لكن استثمار هذا التوتر استثماراً جيداً واجب يقع على عاتقنا نحن. المدرسة أعطت ثمارها بمقدار أهميتها. والآن جاء أوان ترويض ما ألهمته المدارسُ من العلوم والتجارب بعجنها في معجنة أرواحنا نحن، وتغذيتها بأسس ثقافتنا نحن. ذلك بأننا إن كنا عازمين على المضي قدما نحو المستقبل، فلا مناص من أن نكون ذاتيين في المنطق والمحاكمة العقلية والأسلوب، باستثمار تراكمنا العلمي والتجريبي في مواقعه المناسِبة. فقد

تُكسب المدرسةُ الإنسانَ تراكمات وتجارب علميةً واجتماعية واقتصادية وسياسية؛ لكنَّ تقبُّلها من قِبل فئات المجتمع كافة ودوامَها مرتبط بامتزاجها وتكاملها مع الجذور المعنوية للمجتمع وبنيانه الفكري. ولهذا فإن معضلة أمثالنا من الدول المتخلفة إنما هي عجزها عن اكتشاف حقيقة المدرسة بروحها ومعناها، بل -وبالأحرى- إنها معضلة ثقافية في أصلها. ومن الضروري واللازم أن تُحَلَّ هذه المشكلة في أرضيتها هي.

نعم، هناك أمور كثيرة نحصل عليها وتتشربها أرواحنا ونحن على مقاعد المدرسة، ولكن ثمة أمر أشد وَقْعًا وتأثيرا، ألا وهو الثقافة.. ومما لا مرية فيه أن الثقافة من الأمور التي تنتجها البيئة والمحيط.

يمكن القول بأن البيئة ظلَّت مصدر القيم الثقافية في كل الحضارات سابقها وحاضرها. ويمكن أن نسميها "البيئة العامة" التي تتكون من الأحاسيس والأفكار والسلوكيات والأصوات والألوان والأساليب والأداء والخصوصيات الأخرى الحاوية على أعماق متنوعة من طبيعة الأمة. ولا يتعسر علينا التدليل على صحة هذا المقترب بأدلة كثيرة، لكننا نريد الآن أن نركز على أقوى حركيةٍ، وهي "شمولية" الثقافة التي تتنفسها جميع شرائح المجتمع كالهواء، وترتشفها كالماء، وتشمها كالزهور، وتصغي إليها كالطبيعة. فالثقافة إنما تتسع وتحوز على قدرة التأثير الدائم بهذه "الشمولية". وهذا ما ينبغي أن يتبادر إلى الذهن حينما تُذكر "الثقافة". نعم، إنها مؤثرة في راعٍ بعين المقياس الذي تؤثر به على مثقف أو علاّمة. فما يعنيه التقاء الماء والتراب والهواء والشمس في نقطة واحدة بالنسبة لوجود أي كائنٍ حيٍ ومواصلتِه لحياته، هو الذي تعنيه الثقافة بالنسبة لحاضرِ أيِّ مجتمع ومستقبلِه. نعم، إنها من أهم المقومات التي تُوصِل

الفردَ والمجتمع إلى درجة النضج من الجهة النفسية والأخلاقية.

إن المدرسة بقدر ما تكون متوجهة نحو الهدف ومتسمة بالعمق تصبح ميناء أو مطارا أو منطلقا للأمة، بشرط أن تُصْهَر مكتسباتها في بوتقة الثقافة الذاتية. وإلا فمن البدهي أن المدرسة لن تستطيع حل المشاكل الفردية والاجتماعية. إن المدرسة، باعتبارها دائرةَ تخطيطٍ ومركزَ مشروعٍ، من الممكن أن تعني شيئا بقدر ما يستمع الوجدانُ الاجتماعي إلى صوتٍ شيء من برامجها المنسجمة مع الأخلاق العامة وثقافة الأمة... ولكن من العسير جداً -بل من المحال- أن نستدل على أنموذج واحد أنجزته المدرسة بوحدها. لذلك، علينا أن نتقبل المدرسة بواقعها وحقيقتها، ولا نأملَ منها إلا ما يمكن أن تمنحنا إياه. ومع حفظِ ورعايةِ حق العلم، إنَّ تعليق الآمال كلها بالمدرسة منطلَقٌ مبالَغٌ فيه وتفكيرٌ سطحي وبسيط يَجعل إيضاحَ كثير من البديهيات مستعصياً، كتحميل الأرض على قرن الثور!

إن المجتمع السليم الواعدَ بمستقبل مشرق، يتكون من أفراد سليمين هم منه كالجزء من الكل، ولكن -من جانب آخر- وجودُ أفراد منضبطين وممتازين وتطورُهم لا يتم إلا في مجتمع سليم كهذا، وإن كان هذا المقترب يؤدي بنا إلى نوع من "الدَّوْر المحال". فإن بيئة عامرة بتراثنا الثري ستؤثر في كل وقت؛ في العالِم والجاهل، والشاب والكهل، والبدوي والحضري، والمفكر والسارب في هواه.. وما إن يفتح هؤلاء أعينهم ويرتبطون بما حولهم حتى يوحي المحيطُ والجو العام إليهم دائماً بأمورٍ ويحاسبهم ويحاورهم... وبواردتها وغناها، أو بفقرها، أو بوسطها النفسي والمادي، قد تغذيهم وتربيهم وتعمرهم، أو تقوض عواطفهم وأفكارهم وتحيل كل شيء إلى خراب.

وقد لا يتسنى للإنسان أن يحس على وجه تام بمدى التأثير الذي يحدثه جو "روح الأمة" على أي مجتمع وعلى أفراده من كل النواحي، ولكن ينبغي أن نستحضر دائماً أن هناك أمورا جزئية في العالم النفسي أو المادي تبدو لأول وهلة وكأنها تافهة وعادية ولكنها في كثير من الأحيان لفتت الأنظار وفتحت الأذهان نحو اكتشافاتٍ أو محاولاتٍ أو إجراآتٍ علميةٍ غايةٍ في الأهمية؛ فكما أن ترقُّب قطة لجحر فأر ألهب مشاعر بعض النابهين، فهناك عقول انكشفت أمامها آفاق واسعة حينما فَكَّرت في التناغم البديع لمجتمعات النمل والنحل، تلك المجتمعات التي لا يضاهِي كمالَها أكملُ الجمهوريات.. فَكَّرت في التناغم البديع لمجتمع النمل والنحل الذي لا يضاهِي كمالَه أعظمُ الجمهوريات كمالاً.. وكم من أمر مستصغر في عالم المادة أذكى نارَ أذهان وقَّادة. وكم من أمر يبدو للآخرين هينا ولكنه فتح الأبوابَ لاستلهام عظائم؛ مثل طاس الحمّام لـ"أرخميدس"، وتفاحةِ "نيوتن"، والتناغم العام لـ"جِين"، والقِدْرِ المتدحرج على سطح الدار لنصير الدين الطوسي، وأنغامِ الموسيقى التي تهدِّئ المجانين لابن الهيثم، وبزوغِ شمسِ صباحٍ آسرٍ لـ"ميخائيل إنجيليو" وماءِ جَرّةٍ لـ"دنيس بابن"!

ومن الحقيقة أن لبنيان المجتمع من حيث صحته أو عطبه، وجوانبه الإيجابية أوالسلبية تأثيرا بيّنا على الأفراد، وإن لم يتمكن العقل -دائماً- بالنظر الظاهري السطحي من إدراكه والشعور به. فالأفراد هم أبناء المجتمع الذي يوجَدون فيه، و يحسون بكل شيء ويعيشونه ويتقبلونه في بيئة مجتمعهم. فالواجب على أهل العلم والمعرفة عموماً، وعلى المسؤولين خاصة، أن ينقُّوا ويغربلوا الأفكار الغريبة والضارة والمنكَرة التي تؤثر على المجتمع سلبا وتُضادُّ العقل والمشاهدة والتجربة والفكر

الديني. إن أعظم الأبطال الذين قاموا بهذه الغربلة في التاريخ هم الأنبياء. ثم مِن بعدهم الأصفياءُ المتحفِّزون بالإلهام، ورجالُ الفكر الذين تكاملت قلوبهم وعقولهم، ورجال العلم الموقِرون لعالم الغيب مع عالم الشهادة، وللحس الوجداني مع التفكير العقلاني، وللوحي السماوي مع التجربة.

فحينما فتح سيدنا نوح عليه السلام النقاش حول وَدٍّ وسُواع ويغوثَ ويعوقَ ونسر؛ وثار إبراهيم عليه السلام تجاه الأصنام والفكر الوثني المحيط ببيئته؛ ونافح موسى عليه السلام الظلم والاستبداد والطغيان واستغلال الإنسان؛ وأذل المسيح عليه السلام الماديةَ المؤلَّهة؛ وحارب مفخرةُ الإنسانية ﷺ العللَ الاجتماعية التي ما فتئت تمسك بتلابيب البشر كالجهل والفقر والتنازع والتفرق، إلى جانب جميع الأخطاء الأخرى التي جاهد الأنبياء السابقون ضدها... ومن بعده إلى يومنا فَسَّر جميعُ المجددين والمرشدين الكمّل الحياةَ تفسيرا جديدا في إطار أوامر الله تعالى وإرادته ورضائه... هؤلاء كلهم سعوا جاهدين لتحقيق تلك الغربلة والتنقية.

فمن أجل إنشاء الثقافة وإدامتها، ينبغي تحفيز رد الفعل المشترك ضد الأفكار الماسخة والغريبة المنكرة، إلى جانب استشعارها والإحساس بها بكامل عناصرها من قبل كل فئات المجتمع... حتى نبقى وندوم بذواتنا وبخصالنا الذاتية من جهة، وحتى نسير إلى المستقبل من غير السقوط في دوامة الباطل والخرافة والتغرب من جهة أخرى.

إن التأثير المتبادل ما بين الثقافات حقيقة لا مراء فيها. لكن نقل الثقافة من مكان إلى آخر مع المحافظة على أصالتها غير ممكن؛ فالثقافة ليست لباساً يُنزع عن بدن ويُلقى على بدن آخر. وكما تحافِظ الكائنات الحية على أصالتها باعتبار خصوصياتها البيولوجية، كذلك الثقافة إنما تحافظ

على نفسها وتصير بُعدا حيويا للمجتع الذي وُلدت وترعرعت فيه إذا صارت كالهواء الذي يتنفسونه والماء الذي يرتشفونه، حتى تصيرَ عمقاً حيويا لذلك المجتمع، فتُحمَى وتُصانَ.

إن الثقافة تموت إذا ما نقلت من مكان إلى آخر ما لم تتجهز البيئة الجديدة بما يصلح لوجودها ونمائها، أو -في الأقل- تفقد خصوصياتها الذاتية، فتتهجن ويُعدم معناها وتنقلب إلى حقل ثقافي آخر. وكما يَعجز الآخرون عن التمثيل التام لصوتنا ونغمنا وخطنا ورسمنا ونمطنا وأسلوبنا بأصالته الذاتية، كذلك يتعذر علينا التمثل العيني لخصوصيات ثقافة الآخرين. ومع ثراء الألوان في ثقافتنا، فإن الآخرين لن يستفيدوا منها معاني كالتي نفهمها نحن، ولن تهيج فيهم المشاعر كما تهيج فينا نحن، ولئن أحدثتْ فيهم تأثيراً معيَّنا فلن تُحْدثه فيهم بطبيعتها وفطريتها الذاتية. والعكس صحيح إذا أخذنا ثقافة الأمم الأخرى قبل استيعابها وهضمها. ذلك لأن الثقافة ليست بضاعة تشترى من الباعة المتجولين فتؤخذُ إلى البيت كلوحة أو صورة أو أسطوانة أو شريط؛ إنها من حيث كونها ملتقى كل العناصر الزمانية والمكانية للمحيط الذي نشأت وترعرعت فيه "كلٌّ" لايتجزأ وخاصةٌ ببيئتها التي تربت هي فيها، ولابد من تناولها مع كل العناصر التي تقف وراءها حتى يمكن وضع كل الوحدات التي تُكوِّنها وتُغذِّيها في إطار يربط فيما بينها... وأول ما يخطر بالبال أثناء نظرتنا هذه أنها صيغةُ حياةٍ معينة ذات نمط خاص لأمة معينة ومنظومةُ سلوكياتٍ خاصة فريدة من نوعها لأفراد تلك الأمة. ولا شبهة في أن أول ما يلفت النظر في هذا التحليل هو التأثير والتأثر بين فلسفة الحياة لأي مجتمع ونمط سلوكيته. وكلما توطدت فلسفة الحياة وتبناها كل أفراد المجتمع،

تكون سلوكياتهم وأنماطُ حياتِهم باقيةً وواعدة للمستقبل. وكما في الأحياء البيولوجية؛ "الكلُّ" -أي الجسم بمجموعه- يعيّن حركاتِ الخلايا في خط معين، وتقوم الخلايا المتوجهة باتجاه معيَّن بوظيفةِ عواملَ تنقل الهيأة العمومية "للكل" إلى المستقبل.

منظومة الحركات هذه، التي تجري وكأنها في إطار المسؤوليات المتبادلة، توجِد -من جهةٍ- تنظيماً من التدرج الوظيفي عندما يتعلق الموضوع بالموجودات الإرادية، ومن جهة أخرى، تفجّر سيلاً من التمحيص والاختبار من قِبَل العقل السليم والمشاهدة الصحيحة والتشخيص بالحس الوجداني.

إن هذه هي الطريقة المثلى لتوحُّد المجتمع وتَطابُقه مع فلسفة حياته وأسلوبه الذاتي وطبيعته التاريخية، حتى يصبح مجتمعا مستقرا بماضيه وحاضره ومنفتحا على العقل والفكر والوحي.. وإلا فإن الأمور الفلكلورية التي لم يكتمل سياقُ تطورها، والتي تم نسجها من العادات والتقاليد واللهويات وما يُشبع الغرائزَ والأذواق.. حتى المؤلَّهة منها.. ما هي إلا نماذجُ خادعةٌ من العدْم والعوز الثقافي.

نعم، ثَمَّ أخذ وعطاء، وتأثير وتأثر دائم بين فئات المجتمع المتنوعة في الأمم والحضارات الوطيدة التي سكن تموجُها الاجتماعي. وفي الأوساط التي يوجد فيها جو ديمقراطي خاصة، يوجد تأثير وتأثر، وتفاعل مهم ودائم بين قمة هرم المجتمع وعناصر قاعدته. فالمعلم في المدرسة، والواعظُ على الكرسي، والكاتبُ في الجريدة والمجلةِ، والمحللُ على شاشة التلفزيون، والأديبُ بشعره ونثره، والرسامُ الناقل للموجودات بالمعنى الواسع ولمحيطه بالمعنى الضيق إلى لوحات للعرض... هؤلاء

جميعاً يتحركون دائماً في سياق التأثير والتأثر مع جماهيرهم. فالذين في الأعلى، بصفتهم معطِين ومنتجين، يرسلون الإشارات إلى من حولهم باستمرار، يحفّزون بها المعنيين بالخطاب، ويجهزونهم للتحرك، ويزيدون من عدد المعطِين والمنتجين بتوجيه قابلياتهم واستعداداتهم نحو آفاق "تصوراتهم" المهنية والفنية. فيحوّلون كل واحد من المستقبِلين الذين قلَّت أعدادهم بمرور الأيام، إلى أناس ذوي آفاق واسعة.

وإذ ينتج الصانعون للأفكار ويقدمونها، يتعاطى المتلقون مع كل ما يقدَّم لهم من رأس الهرم بنظرة ماحصة متفحصة ونقدية، ويعترضون على أخطاءِ أولئك أو ما يعتقدون أنه خطأ حسب نظرهم.. ويضغطون على من في الأعلى فيُلجئونهم إلى حلول بديلة. فبذلك يُؤكَّد على كل ما يخص هويتهم، وتتم مراجعة أي فساد في الأساليب بإمرارها من المرشّحات، وتُنَقَّى السلوكياتُ الخاطئة بالتقاضي والمحاسبة. ولا يمكن تبادلٌ وتفاعل من هذا النوع بين طبقات المجتمع إلا بفضلِ مشاركتهم جيمعا وتقاسُمِهم لموروث ثقافي مشترك.

فإذا تكاتفت أمة بفئاتها المختلفة وأصبحت كـ"البنيان المرصوص" كما وصَفَها مفخرة الإنسانية ﷺ، وسَخَّرت قوتَها وطاقتها في سبيل تكوين البناء الداخلي وتناغمه، فإن الْحَزن سيصير سهلاً، وسيكون من الطبيعي أن تَأخذ تلك الأمة طريقها لتكون عنصرا فاعلا في التوازن الدولي. لكنَّ تواجُدَ رابطة اجتماعية مؤثرةٍ على هذا المستوى من القوة منوطةٌ بثقافة ذاتية قد استقرت أركانها وعايَشَتْها شرائحُ المجتمع كافة حتى غدت جزءاً من طبعها وجِبلّتها... ثقافةٍ مبنية على قيم أخلاقية تتغذى وتتنفس بها، مستندةٍ بقوة الدين القاهرةِ ومتخطيةٍ بالاستناد إليها كلَّ أشكال "التغريب"،

ساندةٍ لتصوارتنا الفنية بحيث تكُون ملجأً ومأوى آمناً لها في كل مكان. وإلا فأي ثقافة لم يتوضح إطارها ومعالمها بشكل جيد، ولم تحظ بالقبول لدى كل المجتمع، فلا مناص من أنها في حالة كهذه ستصبح دائما مدعاةً للتنازع والتناحر بين معماريي الثقافة وتلاميذهم، ناهيك عن غناء تلك الثقافة وثرائها واحتضانها! وقد يَفتح أحيانا تشاجرٌ كهذا -وبخاصة إذا كان في موضوع الفن والأخلاق- جروحا يستعصي دواؤها.. وقد يورِث الإفراط والتدقيقُ الشديد في مسألة أخلاقية هيمنةً وتسلطاً على المشاعر والأفكار حتى يُوقع الفردَ والمجتمع في الْمَحْلِ والفقر أحيانا، وأحيانا يفتح الباب لتضييع القواعد والأخلاق في البديعيات، فيتلوث كل شيء بالفوضوية والمستهجنات.

ونحن إذ نتناول قضية الثقافة فبدلا من تهيئة الأجواء والمناخ لإشباع الغرائز باللذائذ واللهويات لمن لم تنضبط قدراتهم الروحية بعدُ.. علينا أن نزيد من نشاطاتٍ تُكسبهم القوة والمناعة لمواجهة المعضلات التي قد تواجههم في الحاضر والمستقبل، ونضعَ في الأساس توجيههم نحو التفكير الشمولي الذي ينمي لديهم موهبة اختيار الخير والجميل والصحيح.. وبذلك تتهيأ الأجواء لإمكانية ترجيح الأفراد للخيار الأفضل والأنفع بفضل التوجيه الإجباري-الاختياري للجو العام، والانسياقِ وراء التيار الجماهيري، إلى جانب مساندة العلوم والمعارف...

وهكذا، بفضل التمسك بالقواعد نوعا ما، وبفضل التوجيه الاختياري أو الجبري للبنيان الاجتماعي سيصبح مركزُ التقاء "الأخلاقية" و"العلمية" و"الذوق الفني" مغذيا لأسلوب حياتنا، وماكنةً ساحبةً لتحركاتنا وانطلاقاتنا، فتجعلنا ننهل على التوالى لذائذَ نشوات الظفر في ميدان

الخير والجمال والصحيح... ومن المهم هنا أيضا، كيفية التفسير والتعقل لـ"تصور" الأخلاق والإيمان والفن ومفهوم الجمال. إن حصر الأخلاق في تطبيق بعضِ قواعدَ صارمةٍ.. وفهمَ الإيمان على أنه تصديقٌ أعمى لا يحسب حساباً للعقل والمشاهدة والحس والوجدان.. وتفسيرَ الجمال بأنه التقاط لمحة من منظر الأشياء وصبُّها في لوحات عارية وتماثيل جامدة.. وحبسَ الفن في أطر محددة كالشعر والموسيقى والمسرح.. كل ذلك لا يعني إلا حبس الجمال وثقافةِ الجمال في مساحة ضيقة وجعْلَها ضحلة وترفا لبعضهم.

إن انبعاثنا مجدداً بثقافتنا الذاتية يتطلب رجالَ قلوبٍ متحفزين بالإيمان، ومهندسي فكرٍ سائحين في الغد بأفقهم الفكري، وعباقرةً يحتضنون الوجود والأحداث بتصوراتهم الفنية، ويتعرفون بتحسساتهم وتفحصاتهم الدقيقة على آفاق جديدة أبعدَ من الآفاق التي نحن فيها.

إن انفتاح العديد من عشاق الجمال نحو آفاق جمالية جديدة وتفسيراتِهم الجديدةَ لها.. والهممَ العالية التي تستحق التقدير للفنانين المهرة في الفنون وتلاميذِهم المجدين.. وألحانَ ذوي الأصوات الذين يبذلون قصارى جهودهم لترجع موسيقانا إلى روحها الأصلية، ومخزونَهم الثري.. والجهود التي يبذلها الشعراء الفطاحل والناثرون عشاق اللسان في سبيل تخطي مرحلة التقليد حيث بدؤوا يتشممون الذوق الأدبي.. كل ذلك تبدو لنا وكأنها أمارات بزوغ فجر صادق في طريق عودتنا إلى الذات. فإن يكن شعاعاتِ فجرٍ كاذبٍ، فلا ريب أن ما يعقبه هو الفجرُ الصادق!

فإذا سرنا على هذا الخط فلسوف تكون ثقافتنا الرصينة، وجذورُنا المعنوية والروحية، وشخصيتنا ومحتوانا، جزءاً لا يُستغنى عنه من الثقافة

العالمية حينما يأتي الوقت المناسب. أما إذا بقينا على تخبطنا الذي عرفناه أمس واليومَ في التزود والتغذي من مصادرِ ثقافةِ الآخرين، وانغرزنا في التقليد كلما فكرنا في الإنشاء، فلن تنجو الأمة من ذلة التبعية، ولن نتحرر من الوصاية في الشعر والموسيقى والرسم وفروع الفنون الأخرى، ولن نتمكن من إدامة وجودنا بذاتيتنا الخاصة، ولن نفلح في الوصول إلى درجة الإنتاج والعطاء.

نعم، إن لم نبدأ من فورنا بشحن أجيالنا الناشئة بشعائرِ ثقافتنا الذاتية، ولم نبادر بإحياء ما شحنَّاه في النفوس، فسوف نَحكم على الآتين مِن بعدنا بأن يكابدوا حظنا العاثر في الحياة. فينبغي أن يُستنفَر كلُّ مَن له قول في الموضوع، ومهندسو عالمنا الفكري خاصة، بروحية النفير العام إزاء خَطب داهِم، ويحوّلوا البلاد من أدناها إلى أقصاها إلى مشاغل لثقافتنا الذاتية، ومدارسَ لفلسفة حياتنا الذاتية، ومختبراتِ تركيبٍ وتحليل لمنطقنا ومحاكمتنا العقلية الذاتيتين؛ فإن بقاءنا بذاتيتنا يمر عبر انبعاثنا بذاتيتنا.

رسالة الإحياء

لم نعرف حتى اليوم أيديولوجية نجحت في جمع البشر في ظلها زمنا طويلاً، بل ولا أيديولوجية اكتَشفت كلَّ الضرورات اللازمة التي يتطلبها جمع البشر تحت سقف واحد. ومع الادعاءات الباهرة، لم تستطع الدولُ الغربية التي هيمنت على قسم واسع من الأرض في التاريخ القريب أن تُحقق الأمان والحبور الدائم للعالم، ولا الشعوبُ الاشتراكية والشيوعية في الشرق، ولا "المحايدون" الذين يستوي وجودهم وعدم وجودهم، والذين عَبَّر عنهم "جميل مَريج" بـ"رجال الأعراف".

إن هذا الإخفاق في تحقيق الوعود زعزع أركان الثقة لدى الذين هم في موقع المتلقي، بالإضافة إلى أنَّ عَجْز الحلول المطروحة عن البلوغ إلى مستوى العالمية، وقصورَها عن احتضان البشرية كلها، ومخالفتَها للطبيعة الإنسانية، قد أوقع الجميع في أزمةِ انعدامِ الثقة، بل في الريبة والشك في وعودِ كل من يعد! فلذلك تقف الإنسانية اليوم مع كل نظام يُعرض عليها موقفَ الشك والقلق والاستهزاء.. لأنها باتت تعتقد أنَّ الأنظمة التي فُرضت عليها حتى اليوم لم تَعمل كما ينبغي، بل عجزت عن العمل، وبالتالي هناك خلل في الأنظمة كلها!. وهذا يَقتلع بعض المحاسن التي غرستها تلك الأنظمة، فلا يُبقيها في ذاكرة البشر إلا خيالاً بائساً ورؤى خائبة.

وكما أنَّ نقص قطعة صغيرة في نظام ميكانيكي متكاملٍ، يعطل عملَ النظام ويحوّله إلى ركام، فكذلك هذه الأيديولوجيات؛ برزت إلى الميدان بادعاءات مبهرة، لكنها كانت عليلة بعلل وبيلة؛ مثل التصادم مع الطبيعة البشرية، والعجزِ عن احتضان الفئات كلها، والقصورِ في إنجاز وعودها، والضعفِ في الاستجابة للحاجات الإنسانية؛ والأنكأ إغفالُها مجموعة من القيم الإنسانية، بل تأجيج بعضِها مشاعرَ الحقد والبغض والغيظ بين البشر... فذلك كلُّه قوَّض أركانَ الأيديولوجيات كلها فخلفتْ خرائبَ وأنقاضا فكرية، أو قُلْ: هكذا حَدْسُ المجتمعات وظنُّها. ولذلك يمكن القول بأن الجميع اليومَ -إلا شرذمة قليلة- في حالةِ تزعزُعٍ وخيبةِ أمل وترقبٍ مريب وبحثٍ عن مَخرج خارق للأسباب.

بناء على ذلك، فإن أمتنا أولا وبالذات، ثم الإنسانية جمعاء، بحاجة ماسة إلى فكر سام يقوي إراداتنا، ويشحذ هممنا، وينوّر أعيننا، ويبعث الأمل في قلوبنا، ولا يعرِّضنا للخيبة مرة أخرى. أجل، نحن بحاجة شديدة إلى أفكار وغايات وأهداف سامية، ليس فيها فجوات عقلية أو منطقية أو عاطفية، وتكون منغلقة تجاه السلبيات التي ذكرناها آنفاً، وصالحةً للتطبيق كلما سمحت الظروف. إننا نشهد مرحلة يتغير فيها مركز العوالم الفكرية في الأرض، وبدأ الناس يتوجهون بشكل أساسي ودائمي إلى الأفكار بدلا من الأشخاص، واضطر البشر بعد التجارب الفاشلة إلى المبالغة في التمحيص. فإن وُفِّقْنا في استثمار هذا الوضع العام بإستراتيجيات متماسكة ومنسجمة، ونظَّمنا التحفز المعنوي الموجود في المجتمع والنشاطَ الفعال المتراكم فيه منذ عصور، حول هدف سام، فلسوف يجتمع الجمهور الأعظم من الإنسانية -ولو بنسبة معينة- حولَ هذا المركز الجاذب، إن لم يكن من يومه، ففي القابل القريب.

لكن ينبغي بادئ ذي بدء تعيينُ ذلك الهدف السامي. فلقد تعرضت أمم عديدة في الماضي، كما تتعرض في الحاضر، لهزات شديدة مع كونها تملك سياسات، ولكنها فشلت في ربط تلك السياسات بهدف سام وسليم، وقَصُرَ باعُها في النفوذ إلى قلوب البشر. صحيح أن هذه الحال أشد ظهوراً في البلدان التي لم تستقر فيها الحضارة والديمقراطية استقراراً كاملاً؛ لكن الأمم التي ادعت لنفسها أستاذية العالم في الحضارة والديمقراطية، ليست أحسن حالاً في هذا الأمر؛ فمهما كان بهرج ظواهرها، ومهما زعمت دعاياتها، فإن عديداً من الدول التي تبدو عظيمة بترفها وبذخها وأبهتها، إنما تُلهي في الواقع حشودَ الغافلين بالخدع الوقتية لحركتها في فلك النفعية، و تتباكَمُ إذ تدعو الحاجةُ للحديث عن الغد، بدلا من بث الأمل في مستقبل مشرق مغبوط أو حياة راقية... والأنكأ للجرح أنها تتمادى في تجويع القلب والروح والوجدان.

فالواجب علينا الآن -مع وضع كل هذه السلبيات نصب أعيننا- أن نضع أمامنا أهدافا سامية نتخذ في سبيل تحقيقها قيمَنا الذاتية أسسا لصياغة سياسات ومشاريع مستقبلية، حتى يتحققَ الاستقرار في سياساتنا... وإذ يتحقق ذلك، نتمكن من استخدام هاتين القوتين في الاتجاه عينه، من غير السماح للصِّدام بينهما. ونقول: "من غير الصدام بينهما"، لِعِلْمِنا بأن أيَّ نشاط أو حركة معينة، مهما تمثلت بمشاعر مخلصة، قد لا تكون بنَّاءة دائماً. إن النية الخالصة جديرة بالتقدير باعتبارها بُعداً معنويا في الأعمال الصائبة؛ لكن لا تحمل المعنى نفسَه البتة إذا كانت وصفاً من أوصاف العمل الخاطئ. إن أية حركة من الحركات قد تكون بنَّاءة أو هدَّامة حسب طريقة عرضها وأسلوب طرحها. وإذ يفيد العقلُ والمنطق والمشاعر قيمةً

في أي مخطط أو مشروع، فإنه من المهم جداً وجودُ تمثل سليم ومتين له، إلى جانب انعدام الثغرات العاطفية. وأحيانا قد تُبيد الأعمال بعضُها بعضاً بـ"التعارض" و"التساقط" وإن كان كل عمل من هذه الأعمال بمفرده خيراً وصالحاً؛ فعندما يحاول أفرادُ النمل أن تنقل مادة إلى خليتها، فتتشوش بموجات الحس المؤقت أو باختلاف الأهداف في برنامجها الانسياقي المشترك، يَسحَبُ بعضُها المادة إلى جهة وبعضها إلى جهة أخرى. فتبدد طاقتها كلها ثم لا تتقدم إلى الهدف... كذلك المجتمعات التي لا توجد لها أهداف سامية ومُثُل عليا، أو وُجِدت ولم تَمتلك معها جاهزيةً ذهنيةً تناسبهما، فإنك تجدها تتحرك باستمرار، لكنها لا تقطع شوطا، لأن قطع الأشواط يتطلب -منذ البداية- تعيينَ هدف سام يوقره الوجدان ويُرغِّب فيه الانسياقَ الداخلي في نشوة كنشوة العبادة، ثم تفعيلَ منظومة سليمة حسب معطيات الظروف والبيئة العامة، ثم توجيهَ مختلف دورات الطاقات إلى نقطة واحدة معينة، ويعني ذلك تسخير التراكم العلمي والتجريبي والطاقةِ الكامنة لأمرِ ذلك الهدف السامي والغاية المنشودة.

لقد تكاتفت المساعي الفردية كلها إبان الكفاح الوطني (حرب الاستقلال) في اتجاه تحقيق "تركيا المستقلة". فهذا الهدف كان بسيطا جدا، ولكنه استطاع أن يحوز على الاحترام من كل الفئات، فيستحوذَ على العقل والمنطق والعواطف، ويكثّفَ الحركاتِ كلَّها في نقطة واحدة. فكانت هذه القوة -في إطار الشروط العادية والأخذِ بالأسباب- كافيةً لتحقيق الهدف المنشود. غير أن كل نصرٍ وظفرٍ يستجلب الفتور والزهو. لذلك، مِن الصعوبة بمكانٍ الحفاظُ على نقاء لون الفكرة من التغير، وإدامةُ وجودها بحيويتها التامة. ونترك تقويم مدى نجاحنا في هذا الأمر

للتاريخ... ونقول: إنه لا مفر للمجتمع الذي يعيش مشاعر الظفر والنصر وينتشي بهما، من ارتخاء التحفز المعنوي ومن التورط في دوائر الحلقات المفرَغة للفتور، ما لم يستمر إمدادُه بغذاء الأسباب الجديدة المحفِّزة نحو الأهداف والغايات السامية. وقد لا نُصيبُ إذا حصرنا أسباب ارتخاء هذا التحفز، في الفتور المصاحب للانتصارات، أو نشوة النصر، أو الانقباض واللامبالاة اللذَين قد يعتريان طبع الإنسان، فهناك أمور أخرى تولِّد شروخاً واسعة في حياتنا الفكرية وفي حركياتنا؛ مثل تصرفات الزعماء والمرشدين التي لا توحي بالثقة فتُوجِد التذبذبَ والشك، أو مثل ضعفِ قدراتهم وأهليتهم، أو ضيق أفق المثقفين أحيانا إلى درجة العجز عن رؤية مَواطئِ أقدامهم، بله إبصارَهم لمواقع نقل الأمة إلى آفاق جديدة، أو ضعفِنا كأمة عن الإحاطة بواقع حالنا، أو نقصِ التحفيز فينا، أو تقديم التفكير الميكافيلي النفعي على القيم الدينية وقيم الأمة...

ونحن الآن في مواجهة سلسلة من الأزمات المختلفة الناشئة من بيئة مفعمة بكل هذه المحاذير. وحالُنا يوحي بإمكان انفلات الذات وإرسالها، والوقوعِ في تبعثرٍ وتشتت يؤدي بنا إلى الانحلال والذوبان. ولا شك أن هذا يثير شهية العدو، ويخذل الصديق. بل الأدهى والأمرّ هو احتمال أن نُصرَع ونسقط -حفظنا الله تعالى- إذا تكاسلنا في سد هذا الكم من الثغرات العقلية والمنطقية والعاطفية المفتوحة في حياة الأمة. وحتى نجنِّب أمتنا من الفظائع والفواجع التي لا مفر منها في حال سقوطنا، فمن الضروري والمحتَّم أن ننسلخ ونتزحزح تماماً عن التيه في انعدام الهدف، وقابلية الانصياع للاستعمار والاستغلال، ونفسية العيش تحت الوصاية، وهي الحالات الملازمة لدول العالم الثالث... وعلينا أن نتشبث بالسعي

مستعينين بالله تعالى، ونستهدي التوفيق الإلهي في وحدة الأمة وتَوافُقها، ثم نركّز على كينونتنا الذاتية ونتعقب أهدافنا وغاياتنا السامية.

ومن الظاهر عيانا وبيانا، أننا لن نتغلب بمشاريعَ سبق أن تعودناها، على كل هذه السلبيات في مرحلة عاصفة تُواجهنا فيها مهاوٍ سحيقة متشابكة، وجسور منهدَّة وطرق متوعرة، وبأمة مرهَقة بمحن متنوعة لم نشهدها في تاريخنا إلا قليلا. إن مثل هذه الأحوال غير الاعتيادية، تستدعي هممًا وجهودا تتجاوز الهمة والحمية الإنسانية، وطاقةً تعلو فوق ما هو المعتاد. وبالتالي قد تكون هذه الأحوال المدلهمة أحيانا ميلاداً تاريخيا للأمم، بمخططاتها، ومشاريعها، وإستراتيجياتها، وعقولها النابغة التي تنتج هذه المطلوبات، وممثليها الأبطال الذين جَلُّوا عن أن يعيشوا لأنفسهم بل نذروا حياتهم لإحياء غيرهم.

ولذلك، نؤمن -في هذا الوقت الذي نرجو ونأمل فيه أن نكون أمة عظيمة- بضرورةِ وضعِ مناهجَ ومشاريعَ مصوغةٍ بعقلية محترفة ومتخصصة، بل -قبل ذلك- بضرورة إعدادِ أجيال مثالية مستهدِفةٍ إنشاءَ أمة عظيمة. إنَّ تحقيق هذا الفكر بدرجة معينة، وإنْ كان في دائرة صغيرة، وظهورَ نماذجه في آلاف الأبطال الذين تركوا دُورهم وأوطانهم مهاجرين إلى أرجاء الأرض المختلفة، بروح الكفاح الوطني (حرب الاستقلال)، وسعيَهم في زرعِ فسائلِ "روح الأمة" في كل مكان، ووضْعَهم اللبنات الأولى لثغور حُلم المستقبل الكبير في جهات الأرض المختلفة، وعَرْضَهم لعالمهم الروحي والمعنوي حيثما حلُّوا، وكدَّهم مِن أجْل إبراز موقع أمتنا الموروثِ من أعماق التاريخ لِتملأَ مَقعدها الشاغرَ اللائق بها في التوازن الدولي، ونجاحهم في كل ذلك بقدْر معين... لهي أمثلة شاخصة ومهمة، تُرينا ما

يمكن أن تفعله الأجيال التي تَعَلَّقَ قَلبُها بفكر سامٍ إلى حد العشق.

وإن هذه الكوادر "المحتسبة" التي قد تجوع أحيانا وتعطش أخرى، لكنها تتدرع دوما بالإيمان والأمل والعزم، وكأنهم المعنيون بوصف محمد عاكف: "مستعينون بالله، متشبثون بالسعي، مستسلمون للحكمة الإلهية"، هؤلاء يَحُلُّون -بحَملة وانطلاقة واحدة، وبنفخة واحدة- معضلاتٍ تَعجز دولٌ كبيرة أن تَحُلها بأنشطةِ "لوبياتها" وصَرْفِها الملايينَ على إعلاناتها. فينبغي أن لا يستهان بهذا "التكوين" الباهر، ولا يعلَّل بسلسلة الصُدَف، ولا يُربطَ بمكانة الدول المهاجَر إليها. بل السر في هذه الحركة الرائعة هو توجُّه القلوب المخلصة إلى الله تعالى، ومَنُّ الله تعالى بزيادة الإحسان على هذه الأمة التي تَوارثت العزَّ من أعماق تاريخها. نعم، يناط النجاح في هذا العمل -كما في كل نجاح- بالهمة والحميَّة من الصدور النابضة بالإخلاص، وبالوفاء من الأمة، وبالتوفيق من الله تعالى.

إن الأبناء المضحين اللائقين بهذه الأمة الوفية، يهرعون أفواجا باسم وطن المستقبل الكبير، إلى الغربة والحرمان، وفي أيديهم مشاعل العلم والعرفان، كالذين كانوا يتَحَدَّون اليأس والعجز في أشد محن التاريخ، وكالحملات الباهرة المتدفقة في انبعاث فجائي، والمترعرعة بجلوات الغنى والوجود على الرغم من الفقر والعدم، وكالجيوش المتقدمة إلى الموت في سرور وانشراح، على وقْع الأناشيد الوطنية، على رغم أنف التضييق والافتراء والاتهام مثلما يحصل اليوم. هؤلاء يؤدون منذ سنوات من غير توان أو فتور، رسالةً مهمة لحساب أمتنا وشعبنا وبلدنا، ونبعُ قوتِهم التي لا تنفد هو إيمانهم، ووقودُ مشاعلِ عشقِهم وحماسهم الذي لا يخمد هو هدفهم السامي وفكرهم وروح الأمة.

إن الذين يجهلون الأهمية الحيوية لهاتين المقومتين، ولا يعقلون القدرة التي يوجِدها الإيمانُ والأهدافُ السامية في الإنسان، فيتساءلون في شك ممزوج بالحقد والبغض أحيانا، وفي رفض غاضب متشرب بالهذيان أحيانا: "كيف يحصل كل هذا؟ ما مصلحتهم في هذا؟"... هؤلاء بقولهم هذا يفضحون أنفسهم ويُظهرون مدى حرمانهم من الأهداف والأفكار السامية.

ومن المسَلَّم به، أن الفكر والهدف السامي نشيدٌ يحرك الأجيال المثالية، و"مولِّدُ طاقةٍ" يَشحن طاقتَهم الدائمة، ومنبعٌ صافٍ يمد عشقَهم وحماسهم، ومشاعرُ فياضةٌ متدفقة تَرفع إلى السماء نداءَ مصيرهم. وبفضل هذا الفكر السامي، تصل المساعي الفردية المتوسعة باطراد والمتحولةُ إلى حركة جماعية، وإلى عمق مختلف وتدفق مختلف وإيقاع مختلف، و-بطبيعة الحال- إلى نسق مختلف، فتجدُ لتيارها مجرىً حتى وإن اضطُرَّت إلى اجتياح القمم لمواصلة المسيرة.

ففي عصورِ تخبُّطِ الإنسانيةِ في الظلمات، كان أهم مصادر القوة لتلك الثلة من المجاهدين الأوائل المنبثقةِ من صدر الصحراء هو إيمانهم واعتبارهم تفريغَ إلهاماتِ إيمانِهم الفوارةِ في قلوبهم إلى صدور الآخرين هدفا أسمى؛ فبحَملة واحدة بَدَّلوا مصيرَ الدنيا من النحس إلى السعد، وبنفخة واحدة صاروا صوتَ الأمل ونَفَسه في ثلاث قارات. وكانت المقومات عينُها وراء الأمل العثماني الكبير؛ فهي التي استنهضت عشيرةً من هضاب آسيا، ودفَعَتْهَا للسير إلى الأناضول لتُقيمَ دولةً عظمى. وأيضا هي التي كانت في عقول أبطال الكفاح الوطني (حرب الاستقلال). وكذلك جموع الهند الذين لم يكن يبدو على سيماهم أمارات الحياة في أواسط القرن العشرين، فحركهم إلى الحرية

والاستقلال حماسٌ عظيم؛ كان أساسَ قوته إيمانُ ذلك الشعب وأمله، وفكرةُ أنْ يَحْيَوْا ويَبقوا بذاتهم ومقوماتهم.

لكن ينبغي أن يكون الهدف السامي، الذي يُلهِب الحماسَ في صدور الناس ويدفعُهم إلى التحرك، هدفا منضبطا بضوابط معينة، ومرتبطا بنظام معين؛ فإن كنتَ مهندساً، فعليك أن تُعِدّ العدّة قبل البدء بإنشاء صرح؛ فتتفحصَ متانةَ عناصرِه وسلامتَها، وانسجامَ آحادها فيما بينها ومشاركتَها في جمال ذلك الصرح ومظهره. وهل يتحقق الكمال من غير توافر التوافق والمواءمة والانسجام في الأجزاء كلها!؟ إنَّ الهمم والمبادرات الفردية، إنْ لم تنضبط بالتحرك الجماعي ولم تنظَّم تنظيماً حسنا، فستؤدي إلى تَصادُم بين الأفراد لا محالة... وبالتالي سيَختل النظامُ، وتَنهضُ كل حملة في عكسِ اتجاهِ حركةٍ أخرى، وتُنقِص كلُّ عملية من قيمة الناتج حتى يقرب من الصفر، كما في حاصل الضرب لكسور الأرقام ببعضها في الحساب. وكما أشرنا سابقا، ينبغي أن لا تُطفأ جذوةُ الطاقات الفردية بتاتا، باحتساب ضرر قد تسببه. بل على العكس؛ تجب العناية الرفيعة حتى لا تُهدَر ذرةٌ واحدة من تلك الطاقة، وتُوجَّهَ نحو تحقيق الهدف المنشود الذي تم تعيينه سابقا، ويزاح خُلُق المصادَمة في النفوس، ويستبدل بروح التوافق، بل يُطَبّعَ كل إنسان بهذا الطبع مهما أمكن.

وقد لا نجانب الصوابَ إن قلنا: إن الأديان كلها جاءت لترسيخ هذا الفهم خاصة، ضمن أبعاد تبليغاتها الشاسعة؛ فقد وَضع كلُّ دين ضوابطَ لتنظيم القدرات الفردية، فحَوَّلَتْها إلى مقومات مهمة في توجيه كل الطاقة الكامنة الموجودة نحو المسير إلى حضارة جديدة وعمران جديد. فبإرشاد الدين يوازِن كل فرد حريتَه وفعالياته الشخصية، مع حركة

المجتمع وفعالياته؛ فيتصرف حراً موفياً إرادتَه حقَّها من جهة، ومحافظاً على تكامل الحركة مع الآخرين من جهة أخرى، فينجح في تحقيق الأمرين معاً. كالنجم التابع في موقعه، يدور في فلكه حول مركز الجذب، وحول نفسه في الوقت عينه. ولا يغترنَّ أحد بحيوية الحركات ونشاطها كلٍّ على حدة مهما بلغت، إن لم ترتبط أجزاءُ التكامل والتوازن بمنظومة أقوى وأمتن؛ فربما لا يُسنِد بعضها بعضاً في خط المقصود العام، فتولد أحياناً نتائج أشد سوءاً من السكون والجمود. خلاصة القول: إن السكون والجمود، وكذلك الفوضى في الحركة، كلاهما موت. والمحتوم على الأمم التي تضعضعت نفوسُ أفرادها بمثل هذا الموت أن تُغلَب وتُطرَد إلى خارج مسرح التاريخ.

ومن دوافع الميل إلى التحرك الفردي في الإنسان؛ الأنانيةُ، وثقةُ الإنسان بنفسه، وقصورُ فهمه لحدود قدرته، وقصورُ إدراكه لمدى تأثير روح التوحد والتجمع والفعالياتِ المشتركة والوفاقِ والاتفاق في جلب العناية الإلهية. وكذلك، قد تتسبب الشهرةُ والمنصب والطموحاتُ الشخصية والنوازع الأخرى في تقدُّم الملاحظات والنوازع الفردية إلى الصف الأمامي. وقد يَظهر بمثل هذه الملاحظات والنوازع منحوسون نسوا أهدافهم وبيئتهم تماماً، وخنعوا لمطالب الأكل والشرب والنوم وطرحِ الفضلات، بعدما كانوا في صفوف "الخدمة - الدعوة" يهتفون بأناشيد الخدمة ويبذلون قصارى جهدهم طلباً لتحقيق مرضاة الله تعالى. إن من ينسى المقصود ويُضيّع الغاية المنشودة سيسقط -بالضرورة، كائنا من كان- في شباك الأنانية، وتحل رغباته الجسمانية محل عشق "الخدمة - الخدمة"، وتنطفئ عنده مشاعرُ "العيش من أجل الآخرين".

من هذه الزاوية، يمكن القول بأن قضيتنا الكبرى التي تفوق كل القضايا هي إلهاب جمرة "الرغبة في إحياء الآخرين" في أرواحِ أفرادِ الأمة مرة أخرى، وتنقيةُ الأفكار الغريبة المندسة والحائلةِ بين "الأمة" وأهدافِها السامية.. ومِن بعده، تحريكُ طاقتها التي تبدو خامدة، وحثُّها بتحفيز جيد وبأنشطةٍ وفعالياتٍ منضبطة ومنظمةٍ، على السير نحو هدفها التاريخي كرة أخرى. ومن الضروري لمثل هذه الحركة تحديدُ معالمِ المساحات المشتركة التي ستُشَكِّل المحورَ لحركة المجتمع المشتركةِ بكل شرائحه من بدو وحضر، ومثقفين وحرفيين، ومعلمين وطلبة، وخطباء ومستمعين... ونعني بالمساحات أو القواسم المشتركة أمورا مثل السعي لجعل أمتنا عنصراً مهما في التوازن الدولي... والعزم والإصرار من كل فرد على أداء هذه الرسالة بلا فتور مهما كان ثمن التضحيات... والتركيز على أولوية الفكر، وموازنته مع مشاعر روح الأمة، ومن ثم منعِ حصول الثغرات العقلية والمنطقية والعاطفية أثناء التحرك الجماعي... واحتساب عشق الحقيقة، والتوق للعلم والبحث وسائلَ للارتقاء العَمودي نحو الله تعالى، وتغذية المجتمع بهذه المفاهيم دائماً.

ومن هذا المنطلق، نحن نؤمن بأن الأشخاص الذين يتقاسمون هذه الأهداف والغايات السامية سيُحافِظون على حماسهم وحيويتهم، وستُجرَى الفعالياتُ والأنشطة الجماعية بانسجام ووئام، وسيُستفاد من الوقت والإمكانات بأَجدى وسائلِ التحفيز السريعة، وستَبقى أبوابُ التجدد مفتوحة أبدا بفضل السماح للتفكير بالتوسع.

ولتحقيق هذا كله، لا حاجة إلى تلقين المسلم فهما جديداً للإسلام، ولا إلى إعادة تعليم الإسلام للمسلمين؛ وإنما المطلوب العمل على

تفهيم المسلم الأهميةَ الحيوية لما يعرفه عن الإسلام فعلاً، وقوةَ تأثيره، وديمومتَه الأبدية. لكن المؤلم حقا أن الأقوال في هذه المسألة مختلفة اختلافاً بيناً إلى درجة تحير العقول... فهوى النفس يتقدمُ العقلَ ويغتصب مقام الألوهية، والعواطف تُصدِر أحكاما من فوقِ عرش المنطق... وكما نرى هذا الانحراف لدى نفر من اللادينيين الذين احترفوا الإنكار والإلحاد والذين تعودوا مهاجمة الدين، فكذلك من الممكن أن نراه أيضا عند بعض المتعصبين المحرومين من الحياة القلبية والروحية، الذين يحسبون أنهم فقط متدينون.. هذان الصنفان قد يبدوان مختلفَين فيما بينهما حسب الظاهر، لكنهما كَفَرَسَيْ رِهَانٍ في الإضرار بالدين والأمة والوطن.

الصنفان كلاهما لا يوقر روح الدين، وكلاهما لا يتسامح في التفكير الحر، وكلاهما منغلق أمام فكرة المشاركة والتقاسم. رأسُ مالِهم الأعزُّ هو الفِرية والزور والتشويه، وأجود فنونهم هو النميمة واللمز على غير المحسوبين منهم... لا يهمهم إلامَ يلجأون، ولا على من يستندون؟ فالمهمُّ أن يبتلعوا ويأكلوا من لا يستسيغون وجوده. والحقيقة أن الفريقَين يبذلان في هذه المسألة جهدا عظيما وحثيثا أظن أنهم لو صرفوه فيما يليق، لَعمَّروا الأرض كلها.

وبدهي أنه في هذه الأجواء المظلمة الخانقة، وفي ميدان الذين لا يفكرون ولا يبصرون ولا يعلمون، لن توجَد الحياةُ الفكرية والعشق إلى الحقيقة والتحري في سبيل العلم والبحث... وإن وُجدت، فلن تنمو وتتطور... وإن نمت وتطورت، فلن تغادِر عالمَ الأحلام والفانتازيا. وإنّ حالنا المنكسرَ البائس شاهدٌ على ما نقول ليس بلسان واحد بل بألف لسان.

لكن الحال يقتضي في الواقع أن تكون عقليةُ أمتنا عقليةَ إعمارٍ

وإنشاء، وأن ننجو من هذه الحالة التي نتخبط فيها والتي نعاني فيها من فقر التفكير وغياب الأهداف. ونحن اليوم بحاجة ماسة -قبل كل شيء- إلى هدف سام بعيد المرام، هو انبعاثنا برؤيتنا الحضارية وبثقافتنا الذاتية. ولكي ترتقي أمتنا -كصرح سامق- على أركان القيم التاريخية وقواعدها لابد لها أن تزيد من الصبر على الأوجاع والعذاب وتباطُؤِ الزمان الذي قد يوصل الإنسان إلى حد الجنون. إنَّ مراعاة سيرِ تطورِ الأحداث ضمن طبائعها منوطةٌ بسعة المعرفة بهذه الطبيعة. القرآن الكريم يخاطب سيدنا ﷺ فيقول: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضاً قَرِيباً وَسَفَراً قَاصِداً لاتَّبَعُوكَ وَلكِنْ بَعُدتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ﴾(التوبة:٤٢)، فيُسَرّي عنه ﷺ ويُوبّخ المتخلفين المتهاوين في الطريق.

وحسب المنظور الإسلامي، يُعَدُّ المقصود حاصلاً بنوال الهدف البدهي لكل حركة أو انطلاقة، وهو رضى الله تعالى. فسواء بعد ذلك إن تحققت نتيجةُ الخدمات المقدَّمة باسم أمتنا بارتقائها إلى المكان اللائق بها في التوازن الدولي، أو لم تتحقق؛ فإن المؤمن يسعى لنوال رضاه تعالى في كل خدمة إيمانية وكل فعالية دعوية. فبهذه النظرة يتحول غيرها من الأهداف إلى أهداف إضافية واعتبارية ومجردِ وسائلَ تؤدي إلى الهدف الحقيقي.

الطابع الأساسي للتصور الإسلامي

إن جذور الإسلام لانهائيةٌ فوق الزمان والمكان، والمخاطَبُ في الإسلام هو قلب الإنسان الذي يسع ويستوعب السماوات والأرض بسعته المعنوية، وهدفُه السعادة الدنيوية والأخروية

الإسلام، اسم الصراط المستقيم الممتدِ من الأزل إلى الأبد، وعنوانُ النظام السماوي المنزَّلِ لتحقيق رغبة "الخلود" في كل شخص، ولِفتحِ مغاليق القلوب جميعاً؛ ابتداءً من قلبِ أشرف البشر في الأرض ﷺ، وانتهاء بقلب البشرية.

منذ أن نصب الإسلام سرادقه في الأرض وظّف طاقاته كلها في مخاطبة القلوب وفتحِها، واستطاع أن يرسم صورتَه في كل وجدان، ثم توجه نحو وحدات الحياة كلها.. فثَمَّ تناسب دائم بين تعمقه في الصدور وتأثيره في مفاصل الحياة؛ فبقدر عمق تغلغله في الأرواح وتجذُّره فيها، يتدفق فيضُ تأثيره في حياتنا وتزداد انعكاساته فيما حولنا.

بل نستطيع القول بأن ما نلاحظه في محيطنا من الشوق والرغبة والتلقي بالقبول نحو الإسلام إنما تتحقق متناسبةً طرديا مع عمق هذه الصورة الداخلية المشرقة ومدى سعة إحاطتها، وهذا يعني أنه كلما كان هذا القبول المسبق ضاربا في أغوار أعماق الإنسان، يقوَى تأثيره في محيطه. وفي ضوء ما يمليه هذا الإذعان الداخلي يأخذ المجتمع وِجهته

في مسيرة حياته الأخلاقية والاقتصادية والسياسية والإدارية والثقافية.

نعم، إن المجتمع -من كل الوجوه- يحمل في ملامحه خطوطاً مهمة من هذا الوازع الداخلي، وينعكس الفن والأدب إلى الخارج حاملَين ألوان هذا المحتوى الداخلي ونقوشه، ويُسمَع ويُستشعَر في كل مكان بين سطور الوجود والأشياء صوتُ هذا المحتوى الداخلي ونَفَسُه وأداؤه، ويشجي كل شيء مرئي أو خافٍ أسماعَنا بأنغام رائعة يلحنها لسان هذا المحتوى الداخلي الصامت بلا صوت ولا كلام.

ومن هذا السر فإن أصحاب القلوب التي فُتحت بالإيمان ما يلفظون من قول إلا وتُسمَع منهم نغمات من الوجود السرمدي.. وهؤلاء كلما يلقون نظرة إلى ما حولهم يحسبون أنفسهم في ممرات زمردية تؤدي بهم إلى سفوح الجنة، وهم بذلك يمزجون وعثاء السفر بالسعادة التي سيَلقونها في نهاية المطاف.. ففي كل مظانّ التأفف تراهم يسيحون قائلين: "مرحى... مرحى".

إن الكلمة المفتاحية لفتح القلوب هي "لا إله إلا الله، محمد رسول الله"، بحيث إن كل الخصائص الإيمانية -حسب الإسلام- تتأسس على هاتين الجملتين الوجيزتين اللتين هما تعبير عن حقيقة لها وجهان؛ أحدهما: غاية، والآخر: وسيلة. فالإيمان الذي هو كـ"شجرة طوبى"، تنشأ من هذه البذرة، فتغطي -بما تؤتي من ثمار المعرفة- سماءَ أحاسيسِ الإنسان وشعوره وإدراكه، ثم تتحول العلوم والمعارف كلها إلى العشق والاشتياق والحرصِ بحَملةٍ وهِمَّة داخلية وشعورٍ وحسٍ داخليّ، ليحاصر ذاك الإنسانَ من كل جهة، فيحوّله إلى إنسان جديد قائم على محور الوجدان... فتنعكس هذه الحالُ على كل سلوكيات هذا الإنسان العاشق

المشتاق. وتَحمل عبادتُه وطاعتُه سماتٍ ترتسم بخطوط هذه العلاقة والرابطة، وذلك العشقِ والاشتياق، وتصير مناسباتُه البشرية انعكاساتٍ لهذه اللدنية... وتتمحور حركاته الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والإدارية كلها، حول قوة الجذب المركزي هذه... فتتشكل فعالياتُه الفنية وأنشطته الثقافية بهذه المقومات الداخلية، وتتوسع بها، وتَبْرُز بألوان القلب وأدائه الجميل تماماً. وإذا كان الحاصل الظاهر أثرا فنياً أو كتاباً أو رسماً أو شعراً أو لحناً، فإنه يهتف بمشاعرِ وأحاسيسِ القلب المتغذي بهذا الأنموذج والجوهر الداخلي... فيهتف معبّراً عن الهيجان أو الخفقان المرتشف من واردات القلب لصاحب الأثر، وعن عشقه، ووصاله أو هجرانه. وكذلك الحال حال الروح المشبع بالإيمان والمعرفة والمحبة والأذواق الروحانية، إذ تُبدي رسمَها الداخلي على الفن والثقافة والأنشطة الأخرى، وتهتف بمعاني (الإنسان - الكون - الله)، المتحولة في أعماق الروح إلى "خُلاصات" أو "عُصارات" رائقة وتسعى دوماً إلى "نَظْم" المعاني الغائصة في بواطنها العميقة.

قد لا يكون الإنسان في كل أحواله قاصداً هذا القصدَ أو متحريا هذا الأمرَ، إلا أن المنهجية الإيمانية في قلبه تَقُود كل تصرفاته -بإرادته أو من غير إرادته- إلى هدف معين. وبطبيعة الحال ستنعكس ألوان "حركيته" الداخلية وأداؤها على نوع حياته وأسلوبه وشخصيته ومناسباته الاجتماعية... وكذلك تَبرز تلك اللهجةُ والأداء والأسلوب في أعماله الفنية وأنشطته الثقافية، لأن موقع الإنسان في الوجود، وغايةَ خلقه، ومقصودَ فعالياته، وتداعياتِ الفكر عن هذه الغاية وذلك المقصودِ، ووظيفته ومسؤولياته، ستحيط -مع الزمان- بكيانه وتحاصره، وتُوجِّهه في

كل ساعة نحو التميُّز والفائقية إزاء ذلك الموجود المتعالي والأعلى بأشدِّ المشاعر حيويةً وتأثيراً.

هذا الفكر الأول الموجِّه سيتمادى في تأثيره على أنشطته الذهنية والفكرية والعلمية... وبعد مدةٍ، سيُحقق حصولَ "طبيعة ثانية" فيه. هذه الطبيعة ستبدي تأثيرها من الأعماق رويدا رويدا في كل صفحات حياته: معتقداته وعباداته، وأخلاقه وعلاقاته الاجتماعية، وارتباطه بربه وسلوكياته. والحقيقة أن الإنسان يرسم حدود عالمه الحقيقي الذاتي بمقدار ما ينمِّي هذه الموهبةَ الأولى الموجِّهة.

وإن هذا الذي تَوجَّه وطَمَح إلى ذرى الحياة القلبية والروحية لهو على بصيرة من أمره؛ لذا فهو يعرف كيف يفكر ويتحرك ويعمل، ومن أين يبدأ... فهو حساس في العبادات، ولديه استشعار عظيم بالأخلاق، وهو منفتح على المراقبة ومحاسبة النفس، ومنهمك في الشعور بالرهبة من الذنوب في مراقبة دائمة.

فمن استقر وتوطد شعوره وتفكيره بهذا القدر، فستكون الحياة بكل وحداتها بالنسبة له كأنها شلال وَجَدَ مجراه، ينحدر هدارا أبداً ليَبلغ البحرَ المحيط، وهو في هذا الشلال يعيش نشوة العشق والوصال أبداً. الإيمان -بمقدار انكشافه وعمقه- مولِّد الطاقة (الدِّينامو) الأساسُ لهذا الإنسان الحركي، والعبادةُ سندُه ومحرِّكُه الواقي، والأخلاق ومجموعُ العلاقات الإنسانية علامتُه الفارقة وفيصلُه المميِّز. والثقافة غدت سجيةً من سجاياه. والفن بدا انعكاسا لاستطلاعه وتفحُّصه وحدسه الداخلي ومشاهداته الباطنة.

وأستطرد لأذكر موضوعا ليس مكانه هنا... لكن أقول عن الفن الإسلامي: إنه يحتوي آفاقا واسعةً خصوصيةً بتحرِّيه "التنوعَ في فَلَك

التجريد". فهو إذ يؤكد على التوحيد، يتخذ موقفاً بيناً وواضحا ضد التشبيه والتجسيم.. وبحكمةِ "إبقاء باب التأويل مفتوحاً أبدا"، يريد أن يُرِيَ بحراً في قطرة، ويصورَ شمساً في ذرة، ويشرحَ كتاباً في كلمة واحدة. أما الثقافة الإسلامية المتشكلة بتأثير هذا المحرك الرئيسِ وهذه المقوماتِ الأساسيةِ -ولا ننبش الآن عن مقولةِ أن الثقافة ميراث الإنسانية عموماً-، فهي منفتحة على كل الأنشطة الفكرية والذهنية المرتبطةِ بواقع الإنسان، وخلاصةٌ وعصارةٌ للخلطة المشتركة لتلك الأنشطة. ونحن نستشعرها بكل شيء يخصنا بأمسنا ويومنا، وبكامل حيويته، فنعيشه، ونطوره، ثم نُودِعه أمانةً لدى الوجدان الاجتماعي، العارفِ المتأهل لما يُقدَّر ويوقَّر.

لذلك، فإن الواجب علينا اليوم هو أن نكافح من أجْل الحفاظ على ذاتيتنا بالارتباط بمنظومتنا العقدية والفكرية، والتوجهِ نحو ثقافتنا ونتاجها.. وأن نقوم بتحقيق ألوان جديدة من الفكر والعرفان -إذا اقتضى الأمر- فوق نسيجِ أطلسنا الفكري.

نعم، ينبغي أن نبذل قصارى جهدنا للالتزام بمصادرنا الذاتية أبداً، وأن نحصر الذهن في بلوغ البحر بمجرانا الذاتي، ونحرص على التطلع إلى الوجود من تحت قبة سمائنا، وقراءته ككتاب، وتفسيرِه إذ نقرؤه، واستنباطِ أفكار جديدة منه.

ومعلوم أن الإسلام منفتح على اقتباسِ ما يمكن اقتباسه من قيم الأمم الأخرى؛ فالإسلام يبحث عن كل فائدة ومصلحة حتى وإن كانت في أقصى بقاع الأرض ويطلبها أنَّى يجدها. وكما اقتَبس في الماضي من علوم الفيزياء والكيمياء والرياضيات والفلك والهندسة والطب والزراعة والصناعة والتقنيات الأخرى أينما وجدها، ثم قوَّمها وطوَّرها وأودعها

أمانة للأجيال الآتية، فكذلك اليوم أيضا يأخذ كل ما يمكن أخذه أينما وجده، وينميه ويطوره ويُودِعه أمانة للوارثين الجدد.

وكون الإنسان خليفة الله في الأرض يستوجب على المسلم أن يكون عاشقا للحقيقة وحريصا على العلم والتحري وشغوفا بالبحث واكتسابِ المهارة في كل مجال. لكن ينبغي أن يتقي المؤمن ويحذر من الاتكاء على المصادر الأخرى في الأمور المتعلقة بالنُظُم العَقَدية والفكرية، والموضوعاتِ المرتبطة بالكتاب والسنة وبكل ما يتعلق بتمثُّل الرسول ﷺ، وطرائقِ التحليل والبحث في السيرة وتاريخِ الإسلام عموما، والفنِ والأدب ونحوها... ذلك، لأن الذين أقاموا بنيانهم الفكري على معاداة الإسلام، ونظروا إلى الإسلام وكأنه خارج الوحي السماوي، لا يُرجى منهم التصرفُ بحسن النية وطلبِ الخير للمسلمين وتمنّي التقدم لهم. أما العلم والتكنولوجيا -وهما خارج إطار ما ذكرناه- فقد ظلت الأيدي تتناقلهما بين الأمم في الماضي، وستستمر المبادلة فيهما مستقبلاً، وتنتقل أمانة ووديعة في أيدي حائزيها. فالعلوم والتكنولوجيا ليست حكراً على دين أو أمة.

لذلك، تستطيع كل أمة سليمةِ المشاعر والفكر والمعتقدات، ومنتصبةٍ على ساقيها بثبات ورسوخ، أن تعتصر هذه العلوم الصِّرفة وتقطرها في روحها، فتجعلَها صوتَ قلبِها ونَفَسَه، ووسيلةً تُوصِل البشر إلى الله تعالى.

والمؤلم أن فلسفة العلم في أوروبا -وعلى نقيض المرونة في عالمنا الفكري- قد أوقعت الغربَ كله في صراع دائم بين العلم والدين لأمور وأوضاع خصوصية، فخَلَّفَ ذلك انفصاماً بين العقل والقلب. هذا هو السبب الرئيس للمعضلات المتتابعة منذ عصور في النُّظم الغربية كلها.

بل لقد تفاقمت الأزمة من مخاصمةِ جبهة العلم والفلسفة للدوغمائيات الكنسية، إلى مخاصمة "المفاهيم" الدينية كافة بمرور الزمان... فكأن العلم والفلسفة حاميةٌ ومدافِعةٌ عن الإلحاد. وقد أصاب-للأسف الشديد- الفكرَ الإسلاميَّ البريءَ شيءٌ من هذا العداء ضد الأديان كلها، إذ عُرِّض لأشنع ظلم وأبشعِ غبن، ووُضِع في قفص الاتهام مع الكنيسة التي هي المعنية في الأصل بهذه الخصومة.

انقلبت هذه الحركة المعادية لدوغمائياتِ تلك التنظيمات التي ظهرت بمظهر الدين، والمنطلقةُ في بداياتها من الحرية الفكرية والعلمية.. انقلبت بمرور الزمان إلى معاداة الله والدين والتدين، ثم إلى تحمسٍ في أرجاء العالم كله لإسكات المتدينين وإحباطهم وتضييقِ الخناق عليهم، بل إزالتِهم من الوجود تماماً. ومع أنه لم يكن للعالم الإسلامي مشكلة البتة مع العلم أو حريةِ الفكر، ولكنَّ زمراً من أعداء الدين تغاضوا عن هذه الحقيقة الفارقة واتخذوه غرضاً لمراميهم العدائية الدنيئة مساوين له بالمسيحية الكنسية.

والحال أن الإسلام كان -ولم يزل- يقدِّم للإنسانية جمعاء نظاماً للحياة جديداً وفريداً... نظاماً لا نظير له في الماضي، ويبدو رمزاً للمثالية والتفرد في الآتي. فهو قد نظَّم وينظِّمُ بأسسه حياةً جديدة لنوع البشر، ويضع تفسيراً جديداً لعوالم الدنيا وما بعد الدنيا، والعالمِ المادي وما وراءه، ويرتِّبُ -من جديد- الوشائجَ بين الإنسان والكائنات والباري ﷻ... يرتبها من وجهة خصوصيات الظواهر وبشكل مميز وفريد، ويقطع دابر التناقضات في "الإلهيات"، وتستجيب القيمُ التي أوجدها بإشباع كامل ومُطَمْئِن لكل متطلبات البشرية حول الموت والحياة، ويسد كل الثغرات

العقلية والمنطقية والفكرية والعاطفية في قلوب المخاطبين وعقولهم.

كان الإسلام -وما يزال- حيويا وحركيا من كل وجهة... كان يتوسع وينبسط في واقع الحياة، ولم يؤجِّل النظرَ إلى أي مشكلة واجَهَتْه. كان يدخل إلى أضيق المعابر في الحياة الفردية والعائلية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية، ويجول في وحدات الحياة كلها بصوت العصر الذي هو فيه، ويَلفت النظر في كل وحدة من وحداتها بصورة أشد إحكاماً من أحكم شيء واقعي.

ولم يكن الإسلام "أيديولوجية مثالية" بمعناها المعروف في الغرب، ومحال عليه أن يكون؛ لأن هذا المعنى كان شمسا خيالية بزغت في السهوب المجهولة خلف جبل "قاف".. شمسا لا ينعكس شعاعها قط على واقع دنيانا المعيش، ولا يُمْكنها الظهورُ حتى في أصغر وحدات الحياة. فهي بأضوائها الكاذبة تصطدم بالخيال وتتكسر عليه كمثالية غير واقعية، وترنو إلى الحياة وحقائقها الواقعية، من أفق بعيد كنوع من أنواع الأحلام اللذيذة(!) -ووصفُها بـ"اللذيذة" يعود لمن يتأولها-.

أما الإسلام، فقد وعد -ويعدُ- البشرية بنظام فريد في نوعه، قابلٍ للتنفيذ في كل مجال، مالكٍ لوسائلَ تحقيقية بديلة في التنفيذ. فيجد فيه الذين يلبون نداءه نشوةَ وتلوُّنَ نظامٍ قد نما في رحمٍ واحدة متوافقةٍ مع طباعهم وجبلتهم. فهو بسعةِ العناية بكل شيء -ابتداءً من "القبول المسبق في الوجدان" إلى المسائل الأخلاقية في المناحي النهائية للحياة، ومن أدق المسائل الفردية والعائلية إلى أعظم المعضلات الاجتماعية- يقدِّم حلولاً فريدة، ولا يخيِّب رجاءَ المنتسب إليه مهما كان ضيّقَ الصدر أو قصير الشأو. الإسلام يبدأ بالعمل في الوجدان الفردي، وإذ يستقر فيه، يطفح منه

بفائقيته الخاصة الذاتية، ويَفيض من محيطه وبيئته، ويجعل كلَّ مكانٍ حقلَ فسائل، فيصطبغ كلُّ مكان بصبغة روحه، ويبدّل جذورُه -أينما انتشرت- لونَ الحياة وأداءها، ويُسمع القلوبَ نداء الوجود الأبدي، وقد كان -ولا يزال- كلُّ نداء منه ترنما للسلام العالمي، وتناغماً للانسجام الاجتماعي، ونَفَساً للتسامح والحوار. أما الصلف والوحشية والحقد والبغض، فهي إما من الغثيان المنعكس من البناء الروحي لخصومه في الخارج، أومِن عسرِ هضم جَهَلة المنتسبين لتعاليمه إليه. فهو على كل حال نور وضياء ولكن حيلولة الخصوم بينه وبين القلوب أدت إلى الكسوف كما أن نشر أعدائه وجهلة منتسبيه تسببت في الخسوف.

ولو تخلى العدو قليلا عن الجفاء، وبَذَلَ الخليلُ قليلاً من الوفاء، لكان الإسلام قد محا وكنس أنواعَ الظلمات -مثل البغض والغيظ- من الأرض، كالبراكين بقوة طردها المركزي أو بحُزَم الضياء من أطياف النور، ولَجعل الأرضَ جنانَ اطمئنانٍ تمتد حافاتها حتى تصل الجنة... ففي ظله يُنسى العِراكُ والجريمة والإرهاب والاضطراب، وتُشمُّ نسائم الحب والتوقير والانسجام والحبور في كل الأرجاء. وإن القلب الذي يتوطد فيه الإسلام، يمتلئ بالحب والاهتمام والتسامح إزاء المخلوقات إجلالا للخالق، والمصنوعاتِ إجلالا للصانع.

نعم، لن يجتمع في القلب إيمان وارتباط بالله مع الحقد والكره والغيظ. وبالأخص إذا كان القلب يحافظ على جلائه ورونقه بتجديد إيمانه وانتسابه للحق تعالى وميثاقه، ويصقل ويجَلَّى كل يوم وأسبوع وعام بشتى أنواع العبادات فلا يُحتمل مطلقاً أن يبقى ذلك القلب مفتوحا لتلقي العداوات. فإن كل تصرفاتنا الإسلامية تحفِّز فينا شعورَ التحرك المسلم، وتقودنا

إلى الحياة الإيمانية. وبتواتر انعكاس مكتسباتنا الوجدانية وارداتنا القلبية على سلوكياتنا، يتكوَّن نسيج أخلاقنا ويتلون بأبهى الألوان. وبدوام تدفقها من تصرفاتنا تتكون مرجعياتُ ثقافتِنا، فتؤمِّن لنا البقاءَ بذاتنا وشخصيتنا. وهكذا إذا كان التكمل في الإنسان مستندا إلى ما وقر في قلبه من الإيمان بالله والاعتماد عليه والثقة به، فسيفيض ذلك على المحيط والبيئة حباً واهتماماً وإخلاصا ووداً. والفردُ المسلم بفضل هذه الجاذبية القدسية التي يحوزها يَخرج من الفردية ويكاد يكون أمة.

إن الهمم الفكرية والتخطيطية والفنية تُولَد ابتداءً في ذات الإنسان، ثم تتشكل صورُها، ثم تتوسع وتنبسط إذا وَجدت المناخَ الملائم للنمو والتطور. فكذلك أيضا العباداتُ والأخلاق والحياةُ الروحية والثقافةُ والعلاقاتُ البشرية الأخرى كافة... يُستَشعَر بها بدايةً في عمق الإنسان إيمانا وإذعاناً، ثم تنمو لتحيط بالحياة كلاً، وتسربِل بصبغتها التصرفاتِ البشريةَ كافة، فتكون مُوَجِّها أساسيا لكل همة وانطلاقةٍ وحركة وفعالية، حاضراً بنفسه وبوجوده في كل الأحوال.

يتميز الإسلام عن النُّظم الدينية والفلسفية الأخرى قاطبة، بأنه رَسَم للإنسانية صورةً فكرية وحياتية ذاتَ بُعد عالمي، لكن بسيماء خاصةٍ به في الوقت عينه... وحَمَّل المنتسبين إليه مسؤوليةَ أن يجعلوه حياة يَحْيَونها وأمرا ينفذونه. ولذلك يسعى كلُّ مسلم يَعرف هذه الحقيقةَ لكي يتصرف ضمن إطارها في أعماله وعلاقاته الفردية والعائلية والاجتماعية، ويخطط لمستقبله وفقاً لهذا الفهم، ويستجمع همته ما استطاع وسنحت له الأحوال، للإيفاء بحق هذه المسؤولية. ولا يخفى أن الأفكار والأهداف السامية تبقى أحلاما وردية رفرافة، ما لم تؤيَّد بحَمَلات وأفعال حركية

لوضعها موضع التنفيذ بقدر ما تسمح به الأحوال... فإن قصّرنا، فسوف تستمر كمّاشة الواقع الفعلي تسحقنا بين فكيها.

ومن الحق أن حقيقة الإيمان المتأصلةَ في عالمنا الداخلي، إنما تُديم وجودَها بقدْرِ تناميها وتوسعِها في الحياة المعيشة؛ فإذا بُذِرت بذور الإيمان وترعرعت واخضرّت في القلوب، ثم تحولت إلى استقامة ووثوق في التصرفات، وانقلبت إلى وقار وخشوع في الصلاة، ورَفدت وازعَ الحَقَّانية والعدل في علاقاتنا الاجتماعية، فذلك يعني أن الأفق منبسط أمامنا إلى اللانهاية للتطور والتوسع. وكما يكون إيمانٌ كهذا الإيمان في الإنسان مصدراً لا يَنفَدُ للقدرة والحيوية، كذلك يكون قاعدةً ومنصةَ انطلاق للارتقاء به باسم "خلافة الله في الأرض" إلى حق "التدخل في الأشياء"، وتشكيلِ صور البيئة المحيطة حسب مشاعره وأفكاره الإيمانية، والانفتاح على اللانهاية في محور التوحيد والتجريد بالتصورات الجمالية والروح الفنية في طبيعيتهما الذاتية. ذلك لأن الإيمان يوجِد روحاً فنية مكينة في الأرواح المنفتحة على الجمال يدعو إلى العَجب والانبهار. نعم، إن الفنان المؤمن يصل إلى الماهية المجردة في منشور الوجود اللانهائي، ويرسم ألوان الأبدية، برقوشٍ وخطوط عديدة على اللوحة بضربةِ ريشة من غير تعب أو رهق... حتى إن الناظر يحسب نفسه أمام أنموذجِ نقشٍ مصغَّر للوجود في كلِّ تأملٍ في اللوحة الفنية، فتأخذه نشوةُ مطالعةِ اللانهاية في المعطيات المحدودة، والبحرِ في القطرة، والكائناتِ في الذرة، في عالم الخطوط السحري، ضمن تصورِ ملاحظاتِ التوحيد والتجريد بلسان الفن.

ونحن لا نريد أن نفهم الفن الإسلامي بحصره في رفض موضوعات

ذاتية أو موضوعية، أو إشهارا وإبرازاً للمهارات... بل تأليفاً -من جهةٍ- بين الروح والمعنى والمحتوى فيما يشاهَد من علائقِ الوجود والحوادث فيُستشعر، وما يُتحسس منها فيفهم أو ما يُتحسس وينبغي أن يُفهم، وبين لغة القلب والشعور والحس -من جهة أخرى-... فيتمكن -من ثم- أن يرشد على الدوام إلى الموجود الذي ليس كمثله شيء بالإيماء والإيحاء من مختلف المستويات والترتيبات -ولكن بلا حيدٍ عن خطٍ مستقيم واحدٍ تشير إليه بوصلةُ القبلة-، وفي مرونة تُشعر بالحقيقة الواحدة الثابتة المطلوبِ فهمُها -ولكن ببعد جديد مختلفٍ في كل نظرة وتطلُّع-، فيُشهر الوحدة في الكثرة، والكثرةَ في الوحدة بخطوط سحرية في هذا الإطار أو فيما يتجاوز هذا الإطار.

الحاصل أن الإسلام صوتُ كتابِ الكائنات ونَفَسُه وتفسيرُه وإيضاحه، كذلك هو رسْمُ ماضي الكائنات وحاضرِها ومستقبلِها، وصورتُها وخارطتها، ومفتاحٌ سرّيٌّ لأبوابها التي قد تُظَن أنها مغلقة. الإسلام "كلٌّ" يعبر عن هذه الأمور والشؤون جميعاً. "كلٌّ" يستحيل تَجَزُّؤه، ويستحيل أن يُحمَّل جزؤه القِيَمَ المحمّلةَ على الكل. فإنَّ تجزئته إلى أجزاء، ثم محاولةَ استنباطِ فهمٍ كاملٍ وتام من الأجزاء غلطٌ وخطل وإهانة لروحه. وسوف يبقى من يريد أن يفهمه أو يحصره في تفسيرِ آياتٍ وأحاديث معدودة بأسلوب وعظيّ، مهزوزَ الوجدان بأحاسيسِ نقص حقيقي، ومُعانياً من خواء روحي دائم؛ مهما كدَّ وسعَى لسماع مجموعة الأنغام الرائعة هذه.

الإسلام إيمان، وعبادة، وأخلاق، ونظام يرفع القيم الإنسانية إلى الأعلى، وفكر، وعلم، وفن. وهو يتناول الحياة كلاً متكاملاً، فيفسرها، ويقوّمها بقيمه، ويقدّم لمنتسبيه مائدةً سماوية من غير نقص. وهو يفسر

أداء الحياة دوماً ممتزجاً مع الواقع، ولا ينادي البتة بأحكامه في وديان الخيال بمعزل عن الحياة. يَربط أحكامَه وأوامره بمعطيات الحياة المعيشة وبإمكانية التطبيق، ولا يَبني الأحكامَ في دنيا الأحلام. الإسلام موجود وحركي في الحياة بكل مساحاتها، من القضايا العقدية إلى الأنشطة الفنية والثقافية... وذلك هو أهم الأمارات والأسس لحيويته وعالميته الأبدية.

المعقوليةُ... ووجهان للعقل

العقل "جوهر" مجرد عن المادة، لكنه ملاصق لها.. وامتداد نوراني للغيب في عالم الشهادة.. وهو من أهم جوانب الروح، وأضوأُ وأنفذُ نورٍ لماهية الإنسان، فارقٍ بين الحق والباطل... وهو "النفس الناطقة" الذي يعبّر عنه القدماء بالـ"أنا".. ومن مقتربِ المتصوفة هو: اسم من أسماء جبريل عليه السلام كما يسمونه "النور الأعظم" و "عرش محمد"... وفي مصطلح بعض الصوفية: هو جوهر إنساني يسمونه: "العقل الجزئي" أو "العقل المجازي"، وبالنسبة لتعلقه بالأمور الأخروية "عقل المَعاد".

إن العقل -بمعنى من معانيه- هو مركزُ حراسةٍ للروح باعتباره موجّهاً للإنسان إلى التفكر والإدراكِ والفهم ومانعا له عن القبائح وحاثا له على المحاسن. والفلسفةُ تهتم كثيرا بهذا "العقل"، وعلمُ الكلام يربط به كثيراً من مسائل "أصول الدين"، وبعضُ المتصوفة يقسمونه باعتباره خيرا أو شرا ومفيدا أو ضارا إلى قسمين: "العقل السماوي" و"العقل الترابي". ونكتفي هنا بهذه الإشارات، لأن تناول العقل بكل خصائصه، الأصليةِ منها والتبعيةِ، تضيق عنها مقالتنا هذه. كذلك نطوي هنا صفحةَ اعتبار العقل -حسب المنظور الإسلامي- سبباً من أسباب العلم، مع أهميته الخاصة. وكذا سنكتفي بالتذكير بأن العقل مناط التكليف والعنصرُ الأساسي للتفكر، والجوهرُ الأول للمحاكمة المنطقية، والمميزُ للإنسان

عن الحيوان والناقلُ إياه إلى مستوى الإنسان الحقيقي، وخيرُ هبة من الخالق للإنسان... فستتناول هذه الجوانب منها على أنها موضوعات تبعية بالنسبة إلى هذه المقالة القصيرة، قد نعرّج عليها هنا بإشارات سريعة للتذكير ببعض أوجهها.

ما نريد أن نركز عليه هنا بإيجاز هو العقل في إطار وظائفه -وذلك حسب رؤية الأستاذ النورسي في رسائل النور- وهو إما العقل المنشئ (العقل المكوِّن) الذي يتكاتف مع الوحي والإلهام والوجدان، وإما ضده الذي هو العقل الضيّق غيرُ الملتفت إلى النواحي الروحية، المنسلخُ من العلائق السماوية، المحدِّد قدرةَ مرونته ومجال حركته. ولا نخوض أثناء البحث -حتى وإن وُجدت مناسباتٌ من بعض الأوجه- في فرضيات "العقل النظري" و"العقل العملي" من مقتربِ "كانْط" أو في ملاحظات "لالَند" عن "العقل المُنشِئ" و"العقل المُنْشَأ". ونكتفي بهذا التذكير السريع، لأنها مواضيع تستوعب كتبا ولكن ليس لها فوائد ملموسة في الواقع العملي.

العقل باعتبار أعماقه الكامنة -في رأي بديع الزمان النورسي والمفكرين المسلمين- عينٌ تَقرأ كتابَ الكائنات، وأُذنٌ داخليةٌ منفتحةٌ على اهتزازات واسعة ومتنوعة، إذ يقوِّم الأصوات والأنغام التي يسمعها ويربطها بمعانٍ مختلفة، وإدراكٌ شامل ومحيطٌ متطلعٌ بتفحصٍ يتجاوز حدود الأشياء والحوادث، وبصرٌ باطنيٌّ منفسح في كشف عوالم الوجود وما بعد الوجود. والإنسان بالعقل يقوِّم ما يراه بالعين ويسمعه بالإذن، فيصل إلى حُكم، وبدلالته يسيح خلف أستار الوجود، بل يرتقي به إلى مقام مخاطبة الله (جل وعلا)، ويتأهل لحمل بعض مسؤولياته: الجبريةِ منها والاختيارية،

ويتحرى عن الكائنات والحوادث طراً، ويشخّصها، ويؤصلها، ويسير إلى الله تعالى. ففي الخير والأمور الحسنة يجمع العقلُ منطقَنا وتفكيرنا مع الثراء الواسع للوحي والإلهام، ويصير مرجعاً للنداءات الواردة من الماورائيات. أما في الشر والقبح، فيورِد التفسيرَ المنطقيَّ للحدود الإلهية ويكبح جماح الرغبات المنفلتة للنفس ويضع إستراتيجيات ضد هجماتها. وفوق هذا، يمنحنا خططاً للتفلت من شِباك الشيطان المختلفة، ويضرب على أهوائنا ورغباتنا الجسمانية قيوداً وسلاسل مصنوعة من أفكار منصهرة في بوتقة المحاسبة والمراقبة. وهو يكبت الأهواء النفسانية ما دام محافِظاً على سماويته ويمنعُها من دناءاتها المتولدة من خصوصياتها، فكأنه شُرطيٌّ حارس أو موظف رقيب يحفظ القيم الإنسانية. وبدهي أن هذه من خصائص "العقل السماوي" أو "عقل المعاد" ولا تمتُّ إلى "العقل الترابي" أو "عقل المَعاش" بِصلة.

وقد كان من المناسب في هذا السياق أن نتحدث عن العقل وقيمته ومكانته في المسؤولية وحجيته في القرآن والإسلام، لكننا نريد أن نحصر الكلام فيما هو معقول وغير معقول حسب القرآن الكريم ومن منظور بديع الزمان النورسي.

لقد تقرر في نظام التفكير الإسلامي -من المنظور القرآني- أن هناك ما يسمَّى بـ"العاقل" و"غير العاقل"، والطبيعة والخلق، والأسباب والقدرة الخالقة فوق الأسباب، والموجود بنفسه والموجود بإرادةٍ محيطةٍ، أو بتعبير عام آخر: هناك التحليق في أفق التوحيد أو التخبط في وحل الشرك. فمنذ وجود الإنسان استمرت مسرحيةُ "مفيستو - فاوست"[1]. (الملحوظة

[1] مفيستو - فاوست: ظهرت شخصية "مفيستوفيلس" الأسطورية في أواخر القرن السادس عشر في التراجيديات الأوربية كأشباه أبالسة يتزلفون للشيطان؛ ففي مسرحية "مارليو" المأساوية، تقمصت

الزمنية المربوطة بوجود الإنسان هي من وجهة وجودٍ خصوصي لمفسِّرٍ وممثل خارجي وهو الإنسان. فالأصل من وجهة التفسير المجرد للكائنات والحوادث، شموليةُ الحال بعينه على ما قبل خلق الإنسان أيضا) وسيدوم صراع الأخيار والأشرار أبدا، وستستمر المفاصلةُ بين الشياطين والأرواح الشيطانية، وبين الأرواح المستعدة لقبول الحق والحقيقة.

ففي كل عصر ما فتئ ممثلو "غير المعقول" الذين يربطون وجود الكائنات والحوادث بفكر التكون الطبيعي والأسبابِ المادية والطبيعة يشكلون صفاً، ويتجمعون حيناً حول آلهة الطبيعة المصطنعة، وحيناً آخر حول القدرة الموهومة للأسباب، فلم يتوانوا عن محاربة ممثلي "المعقول": الأنبياءِ والأصفياء والمؤمنين. وأصحابُ هذا الصف مع أنهم بدلوا إستراتيجياتِهم حسب الزمان والمكان، ولكن عزيمة الحرب وعقلية الكفاح عندهم واحدة لم تتبدل؛ فإما أنهم أحالوا الخلق والتنظيم والإماتة والإحياء وأمثال ذلك من لوازم حقيقة الألوهية إلى ما لا يتجاوز وجودُه الوهمَ كالأسباب والصُدَف والطبيعة، وإما حاوَلوا ربط الأفعال الإلهية -ولو من بعض الوجوه- بهذه المسائل. ولا شك في إلحاد الصنف الأول من هذا الصف. أما الصنف الثاني فقد وقعوا في الشرك، لإشراكهم الأشياء التي خلقها الله تعالى، في أفعاله الإلهية. فإن عقيدة التوحيد تَعتبر

شخصيةُ "فاوست" (حوالي ١٥٨٨) إبليساً باسم "مفيستوفيلس" يضلل الإنسان انتقاماً من طرده من الجنة. أما غوته، فقد أضفى على "فاوست" من خلال "مفيستوفيلس" صفة جديدة. فجعله رمزاً لإبليس يساير الأحداث المستجدة وينفخ في الإنسان وهم القدرة على الهيمنة على مقدرات الكون وعلى فهم كل الأشياء من جهة، ومن جهة أخرى جعله رمزاً معترضاً على كل شيء ومخربا لكل شيء. وينهي "غوته" تراجيديته بهزيمة "مفيستوفيلس" الذي يعبر عن تعطش "فاوست" ونهمه الدائم إلى الخلود والعمل الدائب. إن كل الاعمال المستلهمة من أسطورة "فاوست" تستعين بشخصيات مفيستوفيلس (Mephistopheles). وفاوست شخصية الغربي الباطن. (يراجع هامش ص ١٢٩ من من كتاب: ونحن نقيم صرح الروح للمؤلف، دار النيل، ط:٣، ٢٠٠٩) (المترجم).

أدنى مُحاصَّة ومشاركة أو مماثلة -بأي وجه من الوجوه- للقدير المطلق، الخالق، المنشئ، المحيي، المميت، الرازق، القيوم، السميع، البصير، القيوم.. شركا وغير معقول.

فمن هذا المنظور، فإن عقيدة التوحيد التي هي من القواعد الأساسية في القرآن الكريم موافِقة للعقل، فهو "معقول"؛ ورَبْط الوجودِ بالأسباب والطبيعة وأشياءَ أخرى مناقضٌ للعقل، فهو "غير معقول". ولعل من المفيد أن ننوه هنا إلى أن المعقول يتضح أكثر فأكثر بذكر اللامعقول حسب ما تقرر من أن "الأشياء تعرف بأضدادها".

إذن، الضرورة تحكم -في حال التخلي عن ربط كل الأمور بالتوحيد الحقيقي- بالحاجة إلى مؤثّرين كثيرين يمتلكون قوة الإله في الخلق والإنشاء والإماتة والإحياء والإبصار والقيومية... فتصورٌ كهذا، يقود إلى تقبُّلِ محالات متسلسلة كثيرة لا تعد ولا تحصى، وهو تَناقض صريح مع العقل.

يتحول مفهوم "المعقول" و"غير المعقول" (الذي يلجأ إليه الكلاميون بعناوين متعددة) عند بديع الزمان النورسي إلى صوتٍ قرآنيّ ونَفَسٍ توحيدي خاص. فالمتتبع للقضايا الإيمانية في رسائله سيتعرف على المعاني التي أضفاها القرآن الكريم على هذين المفهومين ("المعقول" و"غير المعقول"). والقرآن الكريم في آيات كثيرة مثل: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللهُ لَفَسَدَتَا﴾(الأنبياء:٢٢). يدعونا دائما إلى المحاكمة العقلية والمنطقية في هذا الموضوع، ويفتح أمام المنطق آفاقاً جديدة.

إن القرآن، يحيل كل المسائل التي يتناولها -ما عدا أوامره التعبدية المتعالية- إلى العقل والمنطق والمحاكمة، ولا يَترك في توجيهاته ونداءاته ثغراتٍ عقلية أو قلبية أو روحية البتة. بل لم يزل معبرا عن الفكر السليم

والمحاكمة العقلية المنهجية والمنطق المنضبط ضد الأحكام والمزاعم المختلفة التي يَبْنِيها خصومه الكثيرون على "غير المعقول"... فأفحمهم، هم وكلَّ أنواع مغالطاتهم وديماغوجياتِهم وجدليتِهم، وحَسَم الأمرَ بظهوره وغلبته عليهم. وهو ما نعتبره، في الوقت عينه، ظهورا وغلبة لرسل الحق تعالى وللعقل السليم عليهم.

وإن دورة التاريخ الدائمة هو التناوب بين مراحل الفتور إزاء الوحي وإهمال "العقلي"، ومراحلِ ظهور التنور السماوي والنشاط العقلي. فمتى ما استضاءت القلوب وتنورت العقول بالأنوار التي ينشرها الأنبياء، وانكفأت الجسمانية والمادية في زاويتيهما، واستقرت الفيزيائية والميتافيزيقية في مكانهما الصحيح، وتَقدم "العقل السماوي" (بتعبير مولانا جلال الدين الرومي) و"عقلُ المعاد" (بتعبير الإمام الغزالي) على "عقل المعاش" و"العقل الترابي"، فقد تحقق -حينذٍ- تزاوُجٌ جديدٌ بين القلب والعقل وميلادٌ جديد. هذا الميلاد هو ميلادُ ربطِ الوجود بمالكه الحقيقي حسب وعيِ العصر وإدراكه مرة أخرى، بتفسير الوجود من جديد، وميلادُ خلاصِ الإنسان من التناقضات الداخلية... ومتى ما عميت الأبصار عن أنوار السماوات وأُهمل العقل وأُبعد التفكير ونُسي "المعقول" بالكلية (بمعناه الخاص)، فقد ارتفعت راياتُ "غير المعقول" في كل المجالات، وانكب حشود البشر على وجوههم في التناقضات، فجعلوا زردشت أو عُزيراً عليه السلام أو المسيح عليه السلام ولداً لله -حاشاه- ووقعوا في انحرافات وضلالات مثل "ثالث ثلاثة"!.. وحينئذٍ انقلبت الموازنات والنُّظم المتعلقة بالوحي والعقل عاليها سافلها.

وقد يتجسد "غير المعقول" في "وَدٍّ" و "يَغُوثَ" و" يَعُوقَ" و"نَسْرٍ"، أو

في "النور والظلمة" كما عند المجوس، أو في روحٍ كليةٍ، أو في أصنام "اللات" و"مناة" و"العزى" و"نائلة" و"إساف"، أو في حوادثَ مخيفة ومفزعة في كتاب الطبيعة مثل النار والنهر والبرق والريح. وفي كل حالٍ، الأرواحُ القابلة للاعوجاج والانحرافِ تنجرف أحيانا إلى هاوية الانحراف انطلاقا من حسن النية، كما في تأليه "ود" و"يغوث" و"يعوق" و"نسر"، أو تندفع في طريقٍ خاطئ فتبعد عن الصواب، لالتفاتهم عما هو معقول وسماوي. وقد يغفلون عن القضية لضيق زاوية الانحراف في المركز. وحين الانتباه في نقطةٍ على المحيط بعيداً عن المركز تتعسر العودة إلى نقطة البدء لتوسع الزاوية. ثم يبدأ التلطخ بتفسيرِ أجلِّ الحقائق، تعليقاً بالأوهام والخيال. إن هذه "اللامعقولية" هي مخالَفة صريحة للعقل وللوحي وانحرافٌ واضح، سواء بإحالةٍ صريحة لكل قضاءٍ إلهيٍّ إلى صنم من الأصنام المتنوعة، أو بربطٍ خفيٍ للمشركين في منظور "الوسطاء" الشفعاء المقرّبين زلفى، ربما بدوافعِ اختلاقهم للتبريرات أو الديماغوجية.

المعقول واحد أبداً. فكلَّما حصل انحراف عنه، حصل السقوط في الكثرة غير المعقولة بلا انتباه ولا وعي... فأقاموا "الكثير الحقيقي" مقام "الواحد الحقيقي" في صور شتى: كما أسند الصابئون الولادة والموت والسعادة والشقاء والبلاء والمصائب إلى الشمس والقمر والنجومِ بكيفيةٍ تشبه معتقداتنا حول القدر، وأسند الأنيميون هذه الأمور إلى الروح الكلية، والمجوسُ إلى النور والظلمة، والوثنيون إلى الأصنام بأسمائها وصفاتها المختلفة. حتى إذا أراد الوحي أن يردَّهم عن هذا الانحراف قالوا: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ﴾(الزخرف:٢٣)، ولم يفكروا بتاتا بتعديل مسارهم إلى الطريق السماوي أو العقلي.

فأولئك ما كانوا يبالون بالمعقولية فيما يعتقدون ويؤلهون. ومآربهم كانت محصورة في أهوائهم ورغباتهم والاقتداءِ بآثار آبائهم متى ما نفعهم ذلك. القرآن الكريم يستصرخ العقل في أولئك المقلدين العُمي، وكلِّ اللاهثين وراء الهيكلية الصورية الجوفاء من قَبلهم ومن بعدهم: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلاَ يَهْتَدُونَ ۝ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لاَ يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ﴾(البقرة:١٧٠-١٧١)

ولنا أن نستطلع هذا في الأسلوب العام للقرآن الكريم؛ فالقرآن الكريم يخاطب المشركين المعاصرين لسيدنا ﷺ مرة بعد مرة بلسان العقل، ويوسع آفاقهم بلسان المنطق، ويحقنهم بالمعقول بقوة المحاكمة المنطقية، ويعيد عليهم صفحات من ديمومة التكرر التاريخي، ويضعضع -بسرد الأمثال- لامنطقيةَ الشرك في تلك الأيام إلى جانب الفكر الإلحادي في قابل الأيام، ويدعو إلى التعقل في كل الأمور.

إن سيرة الأنبياء والمرشدين الذين اتبعوهم مَشْهرٌ لعرض نماذج حية ضد كل نوع من أنواع الكفر والإلحاد والشرك، ومنبر لسرد أشد الخطب إقناعا. والقرآن الكريم يأخذ بيد تلاميذه مرة بعد مرة ليسيح بهم في تلك المشاهر، ويُسمع خدامه أجلَّ الخطب العصماء بأصدق الأصوات.

ومثال ذلك قصة إبراهيم عليه السلام التي تتكرر في القرآن الكريم مراراً، لأنه من أقوى أصوات فكر التوحيد. فتراه محطِّما لأصنام المشركين من قومه، أو مقوضاً لأركان فكر المشركين، أو ضاربا على أفواههم بالأقفال المصنوعة في مصنع العقل، فهم لا ينطقون، أو حاملاً إلى السماء فَهْمَهم المشركَ وتوهُّمَهم الألوهيةَ في النجوم والشمس والقمر، ليحلَّ رباط

الأجسام السماوية، فتتساقط على أفهامهم المنحرفة عن الربوبية، فتخرّ أنقاضا وركاما يئطُّون تحتها، ويفتح سبلاً واسعة تُوصِلُ إلى الله تعالى للقادمين من بعدهم.

ثم يصرخ في المصرين على غير المعقول تارة أخرى: ﴿قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ﴾(الأنبياء:٥٤). ثم تراه قد حطم أصنامهم وقام منتصباً وموبّخاً منطق شركهم المنحرف الضال قائلا: ﴿أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لاَ يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلاَ يَضُرُّكُمْ ۝ أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾(الأنبياء:٦٦-٦٧). إنه يصرخ ويوبخ حتى يوجِفَ أرواح المشركين من قومه والمشركين من بعدهم جميعاً.

ومثلما كان إبراهيم عليه السلام، كان الأنبياء العظام: نوح وهود وصالح وشعيب وموسى... وكلهم أجمعون صلى الله عليهم وسلم، أدَّوا الرسالة نفسها وساروا في الطريق بعينه مع تنوع اللون والنمط حسب تنوع الأحوال والأوضاع، فاتبعوا نهج "العقل السماوي" ونشروا "المعقول" جميعاً. وعلى النقيض كان صفُّ أهل الكفر والإلحاد والشرك الذين أفنوا أعمارهم في السجن الضيّق للهوى والرغبات، وأسْرِ الفهم والفكر المتوارَث من الأجداد، فأهدروها في مد الشعور المنحرف والفكر الضال وجزرِهما وأشهروا اللامنطق على الدوام.

لقد حث الأستاذ النورسي بإصرار على قراءةِ كتاب الكون واستشراف آفاقه والتطلع إلى معرض الوجود. وحثُّه هذا تعبير عن المفهوم المتوارث من ممثلي المعقول: الأنبياء والأصفياء والأولياء وعلماء الإسلام. ومع استحضار اختلاف الخط حسب الزمان، كان محتوى الرسالة والطريق المتبعة واحداً لا يتغير: التحري المستمر في الأرض والسماء... وخضُّ

الأشياء واستبطان مغازى الأشياء والأحداث... وتسليمُ كل الأشياء إلى مالكها الحقيقي... وبعد ذلك، الإحساسُ باطمئنان هذه المعقولية في الوجدان، وتحوُّلُ العلوم المؤدية إلى المعرفة: كل علم إلى نبع يُروي الذوق الروحاني... ومن ثم، تقاسُمُ من في الأرض ومن في السماء تلك الحالَ الروحيةَ.

يرشدنا القرآن الكريم في كثير من آياته البينات إلى هذه الطريق ويدلنا على أن المعقولية هي تعلق الفكر وانشداده باللانهاية: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ۝ وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ۝ تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ۝ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ۝ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ ۝ رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾(ق:٦-١١)، فيلفت النظر إلى السموات وإلى الأرض وإلى الرزق، ويدعونا إلى التعقل والتفكر والتعمق في الإيمان والإثراء في المعرفة، ويؤكد مراراً على أهمية المحسوسات، ويدعونا دائماً إلى استطلاع الأرض التي نعيش عليها: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾(الحج:٤٦). والقرآن هنا يومئ إلى أصل الحرمان والخسران وإلى أنه في القلوب التي عميت بصيرتُها. وهو يوبخ مراراً من لا يستعمل عقله وبصيرته حين يمر من غير تحقيق وتدبر بآيات الأرض والسماء، وكذلك ينبه إلى أهمية "النية" و"النظر"، وأن الرؤية المجردة لا تجدي شيئا: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾(يوسف:١٠٥).

والقرآن الكريم أنموذج فريد للمعقولية من أوجه كثيرة تجتمع كلها فيه. فهو -مع حثه على استطلاع كتاب الكائنات- أنموذجٌ بمتانةِ تقديمه للقضايا الكبرى وإثراء الفكر بمحتواه، وإحاطةِ رسالته، وسحرِ ألفاظه، وتأثيرِ أسلوبه، ووقْعِ صدقيته... نعم، إن مستنَد القرآن هو الوحي، لكن طريقه لا يغادر فَلَكَ العقل. فهو يَطرق باب المخاطَبين مسجّلاً ومُثْبِتاً كل معانيه ومفاهيمه لدى العقل والمنطق والتفكير، ويمضي إلى القلوب بأسلوب يحفز الانتباه، وينطق كابحاً اعتراض العقل والحس والشعور، ويروِّض المتتلمذين عليه دوما بالمعقولية... فالقرآن الكريم يستند إلى الوحي ويتعامل مع البشر في سفح المعقول في كل الأمور... والأمر سواءٌ؛ في تقديمه مئات المسائل المتشابكة بتناغم وتجانس لا يُدرَك شأوه حتى في تحليل المسألة الجزئية، أو في صفاءِ وخلوصِ وتأثيرِ كل تذكرة ومعنى من معانيه، وكذا في الارتقاء بالقلوب المستعدة للإيمان إلى الاطمئنان، أو في إقناع الأرواح المترددة.

فنقول من هذه الوجهة: إن مستطلعي الأشياء والحوادث القادرين على قراءتها، والمسنِدين إياها -من ثم- إلى التوحيد، هم في طريق المعقول... وكذلك الذين يستمعون إلى القرآن الكريم وينصتون إليه ويستمرئونه يُعَدّون في الطريق العقلي. وبالمقابل، من يعجز عن النفوذ إلى بواطن الوجود والحوادث ويبقى خارجها، فليس في الطريق العقلي، وكذلك من لا يستمع إلى القرآن ولا ينصت إليه ولا يستمرئه فليس مستفيداً من أنوار العقل استفادة كاملةً.

نعم، المعقول: هو قراءة الوجود والأشياء، والتفكيرُ بها وتقويمها... ومن بَعدِ التقويم ربطُها بوشائج الإيمان والمعرفة والخالق. واللامعقولُ:

هو إسناد كل شيء من الأشياء وكلِّ حادثة من الحوادث إلى الأسباب المختلفة أو الطبيعة أو أمور أخرى... المعقول: هو استغناء الخالق وجوداً وتوحيداً عن الشريك والنظير والمُعين، وغيرُ المعقول: هو فكر الشرك والإلحاد بصوره وأشكاله كافة... المعقول: هو ضرورة الأنبياء والرسل المرسَلين من الله إلى البشر لشرح الأشياء والحوادث وتفسيرِ الوجود وربطِه بالحقيقة المفردة، وغير المعقول: هو رد النبوة والرسالات الإلهية. ويمكن توسيع هذا الإطار حسب الملاحظات الواردة في رسائل النور، إلى أن يستوعب الأركانَ الإيمانية جميعاً. وأظن أن هذا القدر كافٍ هنا، وأحيلُ إلى كتب مفكري الإسلام للتوسع في الموضوع.

من زاوية أخرى، العقل يعني الفهم والإدراك واستجماع الفكر. وهو بهذا المعنى وسيلة مهمة لتفهُّم الأمور الداخلة ضمن تعريفه، ومن المقومات الحيوية للروح؛ فبالعقل نفهم ما نفهم، وبه نعلم ما نعلم، ونقوّم ونستنبط الحاصلَ والناتج. وضده الحمق والغباء وعدم الإدراك. الحمقى والأغبياء ومعدومو الإدراك لاهثون في طريق اللامعقول بلا هدف ولا مقصود... فلا يفهمون كتاب الكائنات ولا يتآلفون مع الأشياء ولا يستمعون إلى القرآن ولا يدركون أسرار التكليف... ومحال على هؤلاء أن يفهموا الدين وروحه وغايةَ الوجود ومقصوده. ويُسنَد إلى نبينا محمد ﷺ قول مآله: "أن الأحمق عدونا"... فجعله مولانا جلال الدين الرومي عنوانا وصاغه شعراً بلسانه الفصيح (ترجمته):

"قال النبي ﷺ: الأحمق عدو لنا، شقي يقطع طريقنا.
إذَنْ العاقلُ حبيبنا... نَسِيمُه المعتلُّ بردٌ يفوح رَوْحاً وريحانا.
فإنْ غضِبَ العقلُ مني.. فسبَّني وشتمني، أُطأطِئْ رأسي وأُدِمْ صمتي،

لأن العقل من (الله) الذي يمنُّ عليَّ بالفيوض أبداً.

أما الأحمق فإنْ وَضَع في فمي حلوى، أعتلّ من حلواه ويصبني بالحمَّى".

وكذلك كبار الربانيين الآخرون يرون العقل السماوي المستمدَّ من "الأخرويات" وثاقاً يوثَق به الرغباتُ الجسمانية، فلا تستطيع الميولُ الجسدية أن تعبر عن نفسها إلا إذا انفلتت من هذا الوثاق. فالعقل في هذا المعنى قفل حديديٌّ لحفظ القيم الإنسانية ومفتاح سحريٌّ للسعادة البشرية. العقل لجام الرغباتِ النفسية وقفلٌ يغلق فمها، وهو أيضاً جناح ملائكيٌّ تُحلِّق به الروح إلى عالم الخلود. النفس تجرف الإنسان إلى معضلات ومشكلات مختلفة كل ساعة بأباطيلها وترهاتها. وضدُّها العقل، إذ هو قوة سماوية تبدد لعبة النفس. فإذا ارتبط بالقلب وتزود وتغذى من "وارداته"، وأدام التزودَ منه، فإنه لا يترك عدواً إلا صرعه ودحره؛ أما إذا انقطعت وشيجته عن القلب وانقلب من السماوية إلى الترابية، فإنه يصير خائناً يرشد الأعداء ويقيم في جيرة الشهوات ويدافع عن الحقد والبغض وينضم إلى القوة العمياء فيقاوم السماويةَ ويخوض في الجدلية فيكدُّ في إلباس الباطل لباس الحق ويحسب المغالطة براعة، فيجادل مخلِّفاً وراءه الاختلافَ والتفرق، ويحسب فضح الآخرين وتَرَاجُعَهم غلبةً وظفراً... فيتمادى في قتل القلب كل ساعة ويقيم على أنقاضه سرادق النفس، ويتلطخ كل يوم مراتٍ عديدةً بلوثيات تسر الشيطان وتفجر الروح بالبارود.

فالعقل الذي انفلت إلى هذا الحد وصار عنصرا للجماح، يكون -بحسب تعبير مولانا الرومي- "مصدرَ وهم وظنّ، لابد من أن يُذبَح قرباناً أمام المصطفى ﷺ... ثم يُقالَ: حسبنا الله، ويستأنف المسير إلى الله". ويقولُ

الشاعر فضولي رحمه الله[1] بيتاً في هذا العقل المشؤوم (ترجمته):

أريد من عقلي إشارة ودلالة

وعقلي يريني ضياعاً وضلالة

ويؤكد الكاتب الهولندي أرامسوس في "مدح للجنون": أن لا نفع ولا فائدة ترجى من عقل كهذا... مستهزئاً وساخراً به.

نتذكر خلاصة حكيمة هي أنه: "إذا فسدت الأشياء الثمينة، صار ضررها أشد من الأشياء المضرة".. ونقول: إن هذا العمق العميق هو الفارق بين الإنسان وسائر الأحياء، والجوهر الناصع الذي يصعد به إلى مقام "المتلقي لخطاب الله تعالى"، والمعلم والدليل الأول له للارتقاء إلى الحياة القلبية والروحية، يجعله كالملائكة ما دام متغذياً بالسماوية وقارئاً لكتاب الكائنات ومحوّلاً ما يطالعه إلى المعرفة. أما إذا انقطع عن الله تعالى وارتبط بالطبيعة أو النفس، فيكون حية تلسع وعقربا تلدغ في كيان الإنسان، وينقلب إلى سم يميته موتا أبديا، بدلا عن أن يكون إكسير حياته الأبدية.

---

[1] هو أبو فضلي محمد بن سليمان فضولي البغدادي البياتي التركماني. ولد في حلة أو كربلاء، من حواضر العراق وتوفي سنة ١٥٥٦ ميلادية ودفن في النجف. ولم يعرف عنه مغادرته العراق قط. جمع العلوم العقلية (كالفلك والفيزياء والجبر) والعلوم النقلية والشرعية (كالحديث والأصول والمنطق والكلام). أتقن العربية والفارسية وله ديوان في كل منهما، إلى جانب لسانه التركي. اختلف في تشيعه لنظمه قصائد رائعة في حب آل البيت وسيدنا الحسين عليه السلام. لا يخفى أثر التصوف على شعره وفكره، ويقال: إن مثنويته (ليلى ومجنون) الذائعة الصيت هي في معاني التصوف. ويؤيد هذا القول رأيه في الشعر وأن الأصل فيه هو العلم، وأن الشعر بلا علم قالب أجوف وخاوٍ. وقصيدته في مدح النبي ﷺ من الروائع المشهورة على الألسن في مشرق العالم الإسلامي كله. هو من أعظم الشعراء تأثيراً في الأدب التركي باللهجة الآذرية – التركمانية (بديهة) وبالجغتائية (أيضاً). وأثره في الأخيرة ينافس أثر "علي شِير نَوائي". أما تأثيره في الشعر باللهجة العثمانية، فلا يجارَى. فقد أثر في كبار معاصريه العثمانيين أمثال خيالي ويحيا طاشليجه لي، ثم في كبار الجيل اللاحق أمثال روحي البغدادي وباقي ونائلي ونديم والشيخ غالب وكثيرون غيرهم. (المترجم).